

تولستوي

اعترافات

AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT

بسم الله الرحمن الرحيم

اعترافات توستوي

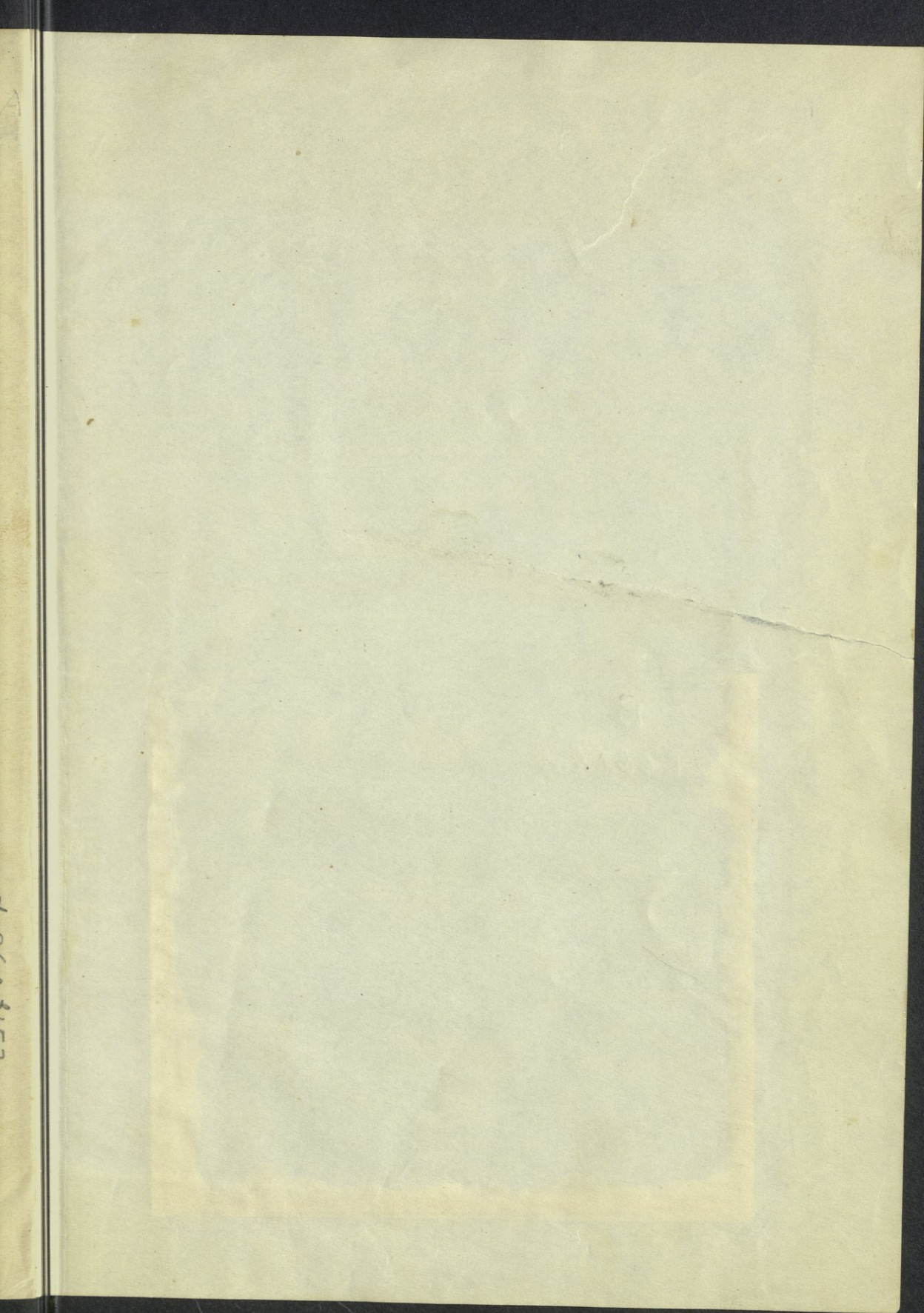
قصة أرمين فليسون

براميس

15 انتهى بالإيمان واليقين

زوجة الأستاذ

محور محور



اعترافات تو ستوی

قصة أريب فيلسوف
بدأ حياته بالشك في الدين
وانتهى بالايمان واليقين

891.78
T654iA
C.1

محمود محمود

cat. 26 Oct: 53

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

1985 - 1986

مكتبة المتحف القبطي بالقاهرة



مكتبة المتحف القبطي بالقاهرة

مكتبة المتحف القبطي بالقاهرة
مكتبة المتحف القبطي بالقاهرة
مكتبة المتحف القبطي بالقاهرة

مكتبة المتحف القبطي بالقاهرة

مكتبة المتحف القبطي بالقاهرة

مكتبة المتحف القبطي بالقاهرة

مكتبة المتحف القبطي بالقاهرة

تولستوى

حياته وآراؤه

كان ترجنييف — وهو من أعلام الأدب الروسى الحديث — يعجب بتولستوى أشد العجب ، ويعده أعظم كاتب أنجسته روسيا منذ أول التاريخ . وظل يتمدح باسمه فى كل مجلس وكل منتدى ، إلى أن هجر تولستوى الأدب المحض ، واتجه إلى البحوث الدينية الغامضة . حينئذ أشفق ترجنييف على هذه الموهبة العظيمة أن تنطفئ شعلتها ، وساءه أن تخلو مكتبة هذا الأديب الفحل — الذى أصاب فى تصوير الطبيعة والإنسان ما لم يصب أحد من قبل — من كل كتاب سوى الإنجيل وبعض الرسائل الدينية . ولشد ما كان يخشى ترجنييف أن يبذل تولستوى خير سنى إنتاجه فى التأملات الدينية التى لا تؤدى إلى غاية ولا تهدى إلى سبيل .

والم المرض بترجنييف ، وأقعده عن الحركة والعمل ؛ ولكنه ، رغم ما كان يعانى من ألم ، ويكابد من سقم ، أمسك بقلمه ، ويده ترتعش من الضعف والوهن ، ودبج رسالة حارة إلى صديقه الأديب العظيم نابغة الروس ، رسالة — كما وصفها ترجنييف نفسه — لا تنبعث إلا من قلب مخلص ليس بينه وبين القبر إلا قيد خطوات . وقد ألح ترجنييف على صاحبه فى هذه الرسالة البليغة أن يهجر الفلسفة والدين ، وأن يترد إلى الأدب الخالص ، فهو ميدانه الذى يبرز فيه كل قرن .

ولكن تولستوى لم يُعر هذه الصيحة المنبعثة من فراش المرض أذنا مصغية ، ولم يجب على الرسالة فى حينها . ومرت الأيام ، وهمّ تولستوى بالكتابة إلى صاحبه ، ولم يكد يتم كتابه حتى فاضت روح ترجنييف وصعدت إلى بارئها ، ومات الرجل دون أن يعلم أن صديقه قد ضرب برجائه عرض الحائط . وفى الحق إنه كان شديداً على تولستوى أن يستجيب لدعوة صاحبه ، وأن يعود إلى الأدب ، لأنه لم يسلك طريق الدين ترفاً أو غروراً ، ولم يتأمل خلق الله عن تطلع وتشوّف وحسب ، بل لقد أحس كأنه ينساق إلى تلك الطريق انسياقاً ، وينحدر إليها بغير إرادته وهو راغم .

كان تولستوى أول الأمر لا يفكر إلا في هذه الحياة الدنيا ، ولا يمتد بصره إلى ما وراء الواقع المحسوس ، بل لقد كان أرهف حساً من كل أديب سواه . ولم ينجح يوماً إلى البحث الدينى الخالص ، ولم يفكر قط لمجرد التفكير . إنما كان يعنى في فنه قبل كل شئ ، بعناصر الحياة الملموسة القريبة ، لا بمعانيها الغامضة البعيدة . ولا نشك أنه تحول إلى التأمل والنظر الدينى راغباً أو عامداً ، ولكنه أصيب بصدمة نفسية مفاجئة ، صدمة ارتعدت منها فرائضه واهتز لها كيانه ، وأخذ من هولها يلتمس له دعامة تسنده فلا يضطرب ، ويطمئن إليها فلا يهوى .

حلت هذه الأزمة النفسية بتولستوى وهو فى نحو الخمسين من عمره . وهى أزمة لا نستطيع أن نصفها ، ولا نستطيع أن نردها إلى سبب بعينه ؛ فقد كان الرجل يعيش عيشة لا تؤدى فى ظاهرها إلى ضيق ، ولا تؤدى إلى حرج ، وواتته حينئذ كل عوامل الحياة السعيدة ، وتوفرت له كل أسباب النعيم : كان رجلاً قوى البنية ، صحيح البدن ، ثاقب البصر ، حاد الذكاء ، يعده أتباعه من المجددين فى الأدب ، وكان صاحب ضيعة واسعة ، ومال وفير ، فلا يحسب للمادة حساباً ؛ وكان نابه الذكى بعيد الصيت ينتمى إلى أسرة من أنبل الأسر ، ويحيد الكتابة بلسان قومه إجابة تجعله إمام الكتاب وشيخ الأدياء ؛ وقد انتشرت رواياته وقصصه فى أنحاء العالم طرّاً حتى عرفه كل قاص ودان ، وكانت حياته المنزلية سعيدة مشبعة بروح العطف والحنان ، وكان له زوج وكان له بنون . . . ومن العسير بعد هذا أن نلتمس سبباً ظاهراً يدفعه إلى التبرم والضجر .

ولكن هذه الأزمة التى حلت بصاحبنا برزت إليه من ظلام النفس لا من نور الحياة ، فأحس كأن شيئاً خفيفاً يطارده ويتهدده ، واسودّت الدنيا فى عينيه ، وكاد أن يقف فى بيداء الحياة لا يبدي حراكاً . وكثيراً ما كان يسائل نفسه : « ماذا دهانى ؟ ما هذه الكتابة التى عرقتى بغير سبب ؟ ما هذا التبرم ، وما هذا الانزعاج ؟ إني لم أعد أجد فى الحياة متعة ، أو أشعر فيها بما يهزّ منىّ الحس والعاطفة . لقد باتت زوجى غريبة عنى ، وتخلّى عنى أبنائى غير آبهين . وأمسى العمل إلى نفسى بغيضاً ممجوجاً ! » وبلغ منه اليأس والضجر أن أخفى عن نفسه بندقية الصيد خشية أن يصوبها إلى صدره فى ساعة من ساعات القنوط ، فيقضى فى لحظة لا يرقبه فيها أحد . ويقول عن نفسه على لسان شخص من أشخاص روايته

(أنا كرنيثا) : « لم يعد عندي شك أنى ككل كائن حى لن أصيب فى هذه الدنيا غير الألم وغير الموت والفناء . إني لن أستطيع العيش على هذه الحال ، فإما أن أجد للغز الحياة حلاً أو أنتحر » .

ولن نحاول هنا أن نتعرف إلى طبيعة هذا النزاع الباطنى الذى جعل من تولستوى مفكراً ومبشراً ؛ ولربما كانت أزمة نفسية طارئة جزءاً من تقدم السن والشيخوخة أو خوفاً من الموت ؛ وربما كان انقباضاً عصيباً ثم استحالة جهوداً روحانياً . ومن طبيعة الرجل العبقري — والأديب خاصة — أن يلاحظ هذه الأزمات النفسية ، وأن يحاول أن يغلبها ويخرج منها ظافراً . فلما اشتد بصاحبنا القلق تساءل جازعاً : « لعلنى لم أعش كما كان ينبغى أن أعيش » وشرع يختبر نفسه كل يوم ، ويفكر فى معنى الحياة ، وكان ينشد الحقيقة ويغوص لجة الفلسفة لا عن لذة طبيعية فى التأمل أو عن تشوّف عقلى ، ولكنه أراد أن يتقى اليأس ، وأن يخلص من هذا القنوط . ومن ثم سار — كما سار باسكال — على هامش الفلسفة ولم يضرب فى صميمها ؛ وبمكتبة موسكو وثيقة بخط يده بقيت من ذلك العهد الخائر يقول فيها : « هناك مسائل مجهولة ينبغى لى أن أجيب عنها ، وتلك هى : لماذا أعيش ؟ وما السبب فى وجودى ؟ وما الغرض منه ؟ وما معنى هذه التفرقة بين الخير والشر التى أحس بها فى دخيلة نفسى ؟ وكيف ينبغى أن أعيش ؟ وما الموت ؟ وأين سبيل الخلاص ؟ » .

ولكن الإجابة عن هذه الأسئلة كانت فوق العمل الأدبى الذى ألف ، فاضطر إلى ممارسة الفلسفة اضطراراً ، واشتغل بها ثلاثين عاماً بعد هذا .

ولم يكن تولستوى من قبل شاكاً ، بل كان يعيش ظاهراً وباطناً عيشة هادئة حرة أبيقورية ، كلها نشاط وكلها عمل ، ولما انقلب إلى الفلاسفة مفاجأة — كما رأينا — أخذ يقرأ الثقات فى الموضوع ، ويتعرف إلى آرائهم فى نشأة الإنسان وفى الغرض من حياته ؛ وشرع يقلب صفحات الكتب الفلسفية ذات المنازع المختلفة ، ويستطلع آراء أفلاطون وكانت وشوبنهاور وباسكال ، لعله واجد فيها للحياة معنى . ولكن الفلسفة والعلم كليهما لم ينتهيا به إلى غاية ، وقد أسف تولستوى أشد الأسف إذ تبين أن آراء هؤلاء الحكماء — كما يقول — « واضحة جلية دقيقة حينما تبتعد عن مشا كل الحياة المباشرة ، ولكنها لا تهدي

الحائر إلى سبيل ، ولا تبعث الطمأنينة إلى القلوب الضالة القلقة ؟ وكلها يقصر دون سؤالى الذى طالما حُرّت فيه ، وذلك هو : لماذا نحيا ؟ » .

وهنا ينتقل تولستوى إلى المرحلة الثالثة من حياته ، فقد طلق الأدب أولاً ، وطلق الفلسفة ثانياً ، ثم توجه إلى الدين لعله يجد فيه هداً . تنكرت له المعرفة فأخذ يبحث عن عقيدة ، وازورَّ عنه العقل فمال إلى القلب ، ودعا الله قائلاً : « اللهم هبني إيماناً قوياً أملاً به قلبي ، وأهدى إليه غيرى » .

وفى هذه المرحلة التى تشتت فيها ذهن تولستوى لا نراه ينتمى إلى عقيدة بعينها ، أو يبتدع رأياً جديداً لم يسبقه إليه أحد ، ولم يفكر فى الثورة على الدين السائد ؛ وإنما أراد أن يلتمس طريقاً وهدفاً لنفسه الحائرة كى يعيد إلى روحه دعتها وطمأنيتها . أراد أن ينقذ نفسه من حيرتها لعله يجد معنى لحياة ليس لها فى ظاهر الأمر معنى ، ولم يخطر له حتى آنئذ أن يعلن على المسيحية القديمة التقليدية ثورته ، بل إنه ليعاود الزلْفى لدى الكنيسة — بعد أن كان قد تخلى عنها وعن الصلاة إبان الشباب — ويخضع لها ولقانونها ، ويؤدى فريضة الصوم ، ويحج إلى المعابد والأديرة ، ويخشى الله ويجادل القسس ورجال الدين ، ويتعمق دراسة الكتاب المقدس .

وفى هذا الدور وقع له ما يقع لكل باحث وراء الحق حائر ، فقد لمس ما أصاب أواصر الدين ونواحيه من إهمال ، وأدرك أن ما تعلمه الكنيسة الروسية من تعاليم المسيح دخيل على المسيحية مضاف إليها . فرأى أن من أولى واجباته أن يفسر معنى الإنجيل الحق ، وأن يعلم الناس هذه المسيحية الجديدة خالصة من كل لبس أو غموض . ثم أمسى بعد ذلك تولستوى الباحث قساً ، وبات القس مبشراً بدين جديد . وأخذ يأسه الشخصى يتخذ صورة عقيدة جديدة ثابتة ، وإصلاح خلقي ، وقاعدة يقوم عليها كيان الجماعة . واستحال سؤاله الأول الذى طالما أزعجه وهو : « لماذا نعيش ؟ وكيف ينبغي أن نعيش ؟ » إلى جواب صريح وهو : « هكذا ينبغي أن نعيش » .

ولكن الكنيسة الأوربية — وقد عاشت الآن زهاء ألف عام — كانت تحس إحساساً دقيقاً بالخطر الكامن فى كل محاولة فردية لتفسير الإنجيل ، وكانت تعلم حق العلم أن كل فرد يحاول أن يصوغ حياته وفقاً لكلمة الله وحدها لا بد أن ينتهى إلى نزاع مع

الكنيسة وخلاف مع الدولة . ولذا فقد صادر أولو الأمر (اعترافاتي) وهو أول كتاب تولستوى عن المبادئ العامة ، ولم يسمحوا له بالذیوع والانتشار ، وصادر مجمع القساوسة المقدس كتابه الثانى (عقيدتى) . وترددت الكنيسة طويلاً قبل أن تتخذ الخطوة الحاسمة الفاصلة احتراماً للكاتب العظيم ، ولكنها اجتأت آخر الأمر وقررت أن تحرم الرجل من رحمة الكنيسة ، لأن تولستوى بدأ يهز أساس الكنيسة والدولة والنظام . وبات تولستوى — ككل من حاول من قبل أن يعود بالمسيحية إلى نشأتها الأولى ، وأن يعيش على كلمة الإنجيل وحدها — عدو الدولة اللدود ، وأصبح فى نظر الحكومة فوضوياً ثائراً يهدد كيان الجماعة . ولكن الرجل بقوته وعزيمته ومقدرته على تحمل المشاق وشجاعته التى لا تعرف الخور ، بز كل مصلح دينى سبقه من أمثال لوثر وكلثن ، ولم يعرف القرن التاسع عشر عدواً للنظام خطراً عليه مستميتاً فى دفاعه كهذا الأديب الفنان العظيم .

واشتدت العداوة بين الرجل وبين أصحاب النفوذ ، لأن الكنيسة والدولة تعرفان أن أخلص المصلحين وأشدهم نبوغاً هم بعينهم أولئك الذين يثيرون الأرض وما عليها ويحرضون عليهما قلوب البشر . والكنيسة والدولة تعرفان أن المسيحية الأولى ترمى إلى مملكة فى السماء لا فى الأرض ، وأن قوانين المسيحية الأولى ثائرة تنكر الحكومة ، لأن المؤمنين يرفعون المسيح فوق قيصر ، ودولة الله فوق دولة الإنسان ؛ وهذا لا يتفق وواجبات الرعية المخلصة ، ولا يتفق وقوانين الدولة وكيانها . ولكن تولستوى لم يدرك بادئ الأمر كل هذه المشا كل المعقدة التى تقوده إليها بحوثه . ولم يرتدع عن نقد الحكومة ونقد الكنيسة . وتفقد أبناء روسيا آنئذ فهداه الرأى إلى أن عدم المساواة فى الشئون الاجتماعية ، والتباين بين الفقراء والأغنياء ، وبين الترف والبؤس ، هو العلة الكبرى والداء الويل . وتبين له من نقده لنفسه ذلك الظلم الشديد الذى كان يصدر عن زملائه أبناء الطبقة الرفيعة . وأخذ على نفسه أن يرد هذا الظلم بكل ما وسع من قوة ، وأن يحرر الشعب من كل عسف وحيف . وقد مر بموسكو ذات يوم فشهد عن كثب ذلك الحاجز العظيم بين حياة الغنى وحياة الفقير ، فأصدر كتابه « ماذا نفعل ؟ » يصور فيه هذه الزيارة الأولى لعاصمة روسيا ، وما شهد من بؤس الجماهير فى هذه المدينة العظيمة . ولا شك أنه رأى بعينه النافذة من قبل بؤس العامة وشقاءها ، ولكنه كان شقاء القرى والريف ، لا شقاء المدن الصناعية حيث تتجمع الألوف

من عامة الناس — ذلك الشقاء الذى كان يعتبره وليد العصر الحديث ونتيجة للمدينة « الآلية » . وأخذ تولستوى الآن يطبق آى الإنجيل بطريقة عملية ، فحاول أن يحدد من البؤس بالهدايا والمنح ، وبعطفه على الفقير وحبه له . ولكنه سرعان ما أدرك عبث هذه الجهود الفردية ، كما أدرك أن المال وحده لا يصلح لقلب حياة هؤلاء البائسين ؛ إن أردنا أن نرفع مستوى العامة وجب علينا أن نعيد بناء المجتمع . ويقول تولستوى فى هذا : « إن بين الغنى والفقير حائلاً من التعليم الزائف . وقبل أن نمدّ أيدينا لمعونة الفقير ينبغى أن نرفع المعاول ونهوى بها على هذا الحائل القائم . إنى لم أعد أشك فى أن الثروة هى السبب الحق فى بؤس العامة وشقاءها » .

فكان السكاتب إذاً يعتقد أن بالبغاء الاجتماعى الراهن خلاصاً وصدوعاً ، وأن من واجبه أن ينبه مواطنيه إلى مواطن الخلل والضعف ، وأن يعلم الناس ويحذرهم ويبين لهم سعة الهوة بين طبقة وأخرى . وكان فى الواقع يرى إلى ثورة خلقية نفسية لا إلى ثورة دموية هدامة . كان يرى إلى ثورة فى العقائد تؤدى إلى المساواة بين الطبقات ، وكان يريد لها ثورة تقوم على الضمير ، وتتم بتنازل الأغنياء طوعاً عن ثرواتهم ، وتخلى الكسالى الذين لا يعملون عن بطالتهم ، وتنتهى بتقسيم العمل تقسيماً جديداً . فلا يغير أحد على أحد ، ويتساوى الجميع فى الحاجات . ومن ذلك الحين بات أدينا يرى الترف سماً زعافاً فى جسم الجماعة ، سماً يجب اقتلاعه للتسوية بين الناس أجمعين .

ومن هذه العقيدة بدأ تولستوى يهاجم الملكية أشد مما هاجمها (كارل ماركس) ومن أقواله فيها : « إن الملكية اليوم أساس لكل شر ، فهى تسبب الألم لمن يملكون ومن لا يملكون على السواء ، وهى — بالضرورة — تؤدى إلى النزاع بين الأغنياء والفقراء » . ومادامت الدولة تعترف بمبدأ الملكية ، فهى فى رأى تولستوى دولة آئمة لا تقوم على أساس صحيح من الدين أو الاجتماع ، و « إنما تتآمر الدول وتتقاتل لأن كلا منها ينشد الملك ، فتراها تحارب تارة على ضفاف الرين ، وطوراً فى أفريقيا ، وطوراً فى الصين أو فى البلقان . إن أصحاب المصارف والمتاجر ، وأصحاب المصانع وملاك الأراضى ، إنما يعملون ويدبرون للملكية وحدها . والموظفون يتقاتلون ويغشون ويظلمون ويألمون من أجل الملكية وحدها . إن العقوبة والسجون إنما تقوم لحماية الملكية دون سواها »

يرى تولستوى أن هناك هيئة واحدة كبيرة تسرق وتخدع وتحمى كل ظلم ، وتلك هي الدولة التي قامت لحماية الملكية وحسب ، والتي أقامت قواها المختلفة وزودتها بالقوانين والقضاة والسجون ورجال الشرطة والجيش لهذا الغرض وحده . وأكبر إثم ترتكبه الدولة هو فرض الجندية على الجميع . ويرى الكاتب — تبعاً لهذا أن المسيحى الذى يخضع لقانون الدولة يخرج على تعاليم المسيح وأحكام الإنجيل ، لأنه يحمل أداة قاتلة يهدر بها دم الغريب من أجل كلمة عارضة : هي الوطن أو الحرية أو الدولة ؛ وهي كلمات جوفاء لا ترمى إلا إلى حماية الملكية وتقديسها . وقد كتب تولستوى مئات الصفحات يشرح كيف أن الدولة بدفعها الناس إلى القتال إنما تحملهم على نقض ما يأمر به الله ، وما ينادى به الضمير .

انقلب تولستوى إذن من باحث دينى إلى فوضوى نائر . أخذ الآن ينادى بملء فيه أن من واجب كل فرد ذكى عاقل على شيء من مكارم الأخلاق أن يقاوم الدولة إذا طلبت إليه ما ينافى « العقيدة المسيحية » ، كالخدمة العسكرية أو القتال . ولا يرى تولستوى أن تكون هذه المقاومة بالقوة والسلاح ، وإنما تكون بالعداء السلبى وعدم التعاون . ومن رأيه أن لا يستغل أقوياء الأمة ضعفاءها فيسخرهم لأعمال لا تعود عليهم بطائل . والرجل الشريف عنده من يفكر ويعمل ، لا فيما يقتضيه الوطن ، وإنما فيما تقتضيه الإنسانية بأسرها . ولا يبنى تولستوى عن الإشارة إلى حق الفرد المقدس فى أن يعمل ما يوحى إليه ضميره ، لا ما تمليه عليه الدولة ، وأن لا ينفذ للدولة أمرها إن شذت عن قواعد الأخلاق . ونصيحته لكل مسيحى مؤمن ألا يؤيد الدولة الظالمة ، فلا يحتكم إلى قاض ، ولا يقبل وظيفة فى الدولة حتى لا يفسد قلبه ، ويبقى نقياً طاهر الذيل .

ويرى تولستوى أن جرائم الأفراد لا تفسد الجماعة كما تفسدها الدولة بنظمها ومؤسساتها ، ويقول فى ذلك : « إن اللصوص والقتلة والمزورين مثال حى لما ينبغى أن نعمله ، نفرغ من جرمهم ، ونزدري ما يرتكبون من إثم . فهم لذلك أقل خطراً من أولئك الذين يقتربون القتل والسرقة والعدوان ، ويتوارون وراء ستار من الدين والعلم والتقاليد ؛ أولئك هم ملائكة الأرضى ، وأغنياء التجار ، وأصحاب المصانع ، فهؤلاء بما لهم من مكانة بين الناس يوحون إلى غيرهم ، أن يحذو حذوهم وينهج منهاجهم . إن خطرهم لا يقتصر على من يقع تحت طائلتهم

وحسب ، إنما يمتد إلى ألوف البشر فيفسدون ضمايرهم حتى يضطرب في أذهانهم ميزان الخير والشر إن حكماً واحداً بالموت يقضى به ظمناً رجل من رجال القضاء نابه مثقف — ويؤيده رجال الدين — يفسد الإنسانية أكثر مما تفسدها ألوف جرائم القتل ، يرتكبها عمال جهال مدفوعين بعاطفة أو شعور . إن الحروب — رغم ما قد تزعمه الدولة من تبرير لها ، ورغم ما تدّعيه من ضرورتها وعدالتها ، ورغم ما يحوطها من ثناء وإجلال للمقاتلين ، وما يكتنفها من تقديس الحرية والوطن ، وإنقاذ الجرحى ومعوثة البائسين — إن الحروب التي تشنها الدولة — رغم هذا كله — تفسد الناس في عام واحد أكثر مما تفسدهم ملايين جرائم النهب والقتل يرتكبها الأفراد بتأثير العاطفة في مئات السنين » ؛ أو بعبارة أخرى : إن الدولة والنظام الاجتماعى الحاضر ، هى أكبر آثم وأكبر مقوض للجماعة ؛ هى الشر المحسد ، ويحملها تولستوى كل تبعة وكل عار .

وإذا كانت الدولة هى الشر ، وهى ستار الفوضى على الأرض ، فإن تولستوى يرى إن واجب المؤمن أن يحتنب كل ما يتطلبه هذا الشبح الشيطانى ، وكل ما يغريه به . إنما المسيحي الحق هو من لا يأبه لروسيا — أو لفرنسا أو إنجلترا — لأنها دولة لها قدس ولها كرامة . المسيحي الحق لا يجعل الدولة أساساً لتفكيره ، وإنما يضع العالم بأسره نصب عينيه كلما خطا خطوة أو قام بعمل . وهكذا ثار تولستوى على الدولة كما ثار على الكنيسة من قبل ، وأعلن « أنه لا يستطيع أن يعترف بالدول والأمم ، ولا أن يشترك فيما ينشب بينها من شجار ، لا بالكتابة ولا بالعمل . وأنه لا يستطيع أن يساهم في عمل يقوم على العداوة بين دولة وأخرى ، كالعوائد والضرائب ، وصناعة المفرقات والأسلحة ، وكل تأهب للحرب أو استعداد لها » الرجل المؤمن عند تولستوى لا يحاول أن يفيد من نظم الدولة ، ولا أن يثرى تحت حمايتها ، ولا أن يبني لنفسه مستقبلاً في ظلها ، ولا أن يتوجه إلى قاض من قضاتها . الرجل المؤمن لا يستغل ما تنتجه الدولة من صناعة ، ولا يستخدم في حياته شيئاً من عمل الآخرين ، ولا يرضى أن يكون من المالكين . الرجل المؤمن لا يداول النقد ، ولا ينتقل بقطار أو سيارة ، ولا يشترك في انتخاب برلمانى ، ولا يشغل وظيفة عامة ، ولا يقسم يمين الإخلاص لقيصر أو لأى سلطة أخرى ، لأنه لا يدين بالطاعة إلا الله وحده دون سواه ، ولكلماته التى أنزلها على لسان أنبيائه المرسلين . المؤمن عند تولستوى — أو قل عند هذا

الرجل الفوضوى الثائر — لا يحكم غير ضميره ، ومن أولى واجباته أن ينكر الدولة ، وأن يعيش خارجها على قواعد أخرى من الأخلاق . وهو بهذا يختلف عن الثائر السياسى الذى يمقت الدولة ولا ينكرها .

ويثور تولستوى هى نظم الجماعة السائدة ، ولكنه لا يشير بمقاومتها بالعنف والشدة — كما قدمنا — لأن الثورة تحارب الشر بالشر ولا تنتهى إلى خير . ومن أقوال تولستوى فى هذا الصدد : « إن المقاومة السلبية الفردية هى وحدها السبيل المشروعة للعراك . وعلى المسيح أن يكابد مظالم الدولة وأن يتحملها دون أن يقرها أو يعترف بها ، وألاً يعارض القوة بالقوة ، لأن العنف معناه اعتراف بالقوة ومبدأ الشر » . ولذا فالثائر الذى يستمع إلى تولستوى يُضرب ولا يُضرب ، ويُظلم دون أن يُظلم . لا يطمح إلى القوة ، ولكن القوة لا ترحزه عن رأيه ، وهو لا يكافح (الدولة) ، وإنما ينبذها غير آبه بها ولا مكترث لها لأنه لا ينتمى إليها .

والفرق واضح عند تولستوى بين المقاومة السلبية الدينية ، وبين الكفاح الإيجابى ، فهو يقول : « إننا حين نقابل الثائرين نظن خطأ أننا نلتقى وإياهم فى رأى ، فكلانا ينادى أن لا دولة ولا ملكية ، ولا ظلم ولا عسف ؛ ولكن هناك فارقاً بين المسيحى المؤمن والثائر السياسى ، فالدولة عند الأول لا وجود لها ، أما الثانى فيفرض قيامها ويعمل على تحطيمها . والملكىة عند المؤمن لا وجود لها ، أما الثائر فيفرض وجودها ويعمل على محوها . والناس جميعاً عند المؤمن سواء ، أما الثائر فيلمس الفوارق بين الطبقات ، ويعمل على إزالتها . والثائر يتظاهر بالكفاح ، والمؤمن يبطنه ولا يرفع به صوتاً ! ويرى الكاتب أن الثورة الدينية إذا التزمت حدود المقاومة السلبية ، كانت أخطر على الدولة من الثورات العنيفة والجمعيات السرية الهدامة . فإنك إن أردت أن تغير نظام العالم ، كان عليك أولاً أن تغير ضمائر الناس ونفوسهم » إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » . وإنما يرى تولستوى إلى ثورة باطنية ، ثورة لا تقوم على السلاح ، وإنما على الضمير الذى لا يلين ، والفرد الذى لا يشكو ألماً ولا ظلاً — هى ثورة القلوب لا ثورة السواعد .

وهذه النزعة المعادية تذكرنا برسالة لوثر (حرية الرجل المسيحى) ، وهى قوية ولا شك ،

فعالة ولا ريب . ولا يتبين ضعفها إلا حينما ينتقل تولستوى من هذا النداء إلى تقرير الذات ، إلى نظرية إيجابية في تأسيس الدولة . وقد أدرك الكاتب أن الإنسان لا يعيش في فراغ لا مكان له ، ولا يحيا في جيل بغير زمان ؛ ولا بد لألوف البشر أن تتجمع ، ولتختلف الآراء أن تتقابل . ولا مناص من وضع الحدود والقواعد لحياة مستقرة ، سواء انتهينا بذلك إلى إقامة الدولة أو لم ننته . إنما ينبغي على أى الحالين أن نفصل بين الخير والشر ، وبين الخطأ والصواب . وهنا عند وضع الحدود والقواعد تتوعر السبيل على تولستوى كما توعرت على مئات المفكرين من قبل ، لأن بناء الجماعة أشق من هدمها .

وفي اللحظة التى ينتقل فيها تولستوى من التشخيص إلى العلاج ، فى اللحظة التى لا يكتفى فيها باتهام النظام الاجتماعى الحاضر وإنكاره ، بل يتعدى إلى اقتراح يقدمه لإصلاح الجماعة البشرية — فى هذه اللحظة ترى كيف تغمض آراؤه وكيف تضطرب أفكاره . فهو يستبدل (الحب) بهذه (الدولة) المستقرة الموحدة ، بما فيها من سلطان وقانون ، وما فيها من قدرة على التنفيذ . الحب عنده هو السبيل الوحيدة لتقريب المصالح المتعارضة ؛ وهى وسيلة غامضة ؛ وعجيب أن تصدر عن رجل بحث فى أعماق النفس البشرية بحثاً لم يسبقه إليه أحد ! ويرى تولستوى أن الهوة العميقة التى تفصل اليوم بين المالكين وغير المالكين ، تزول إذا تنازل الملاك طوعاً من أملاكهم وقلت مطالبهم فى الحياة ؛ ليتنازل الغنى عن ثروته ، ولتتعلم عن غروره ، وليخلق الفنان أعماله ليفهمها عامة الناس ، وليعيش كل فرد بعمله ، ولا يتقاضى عليه أكثر مما يحتاج لحياة ساذجة بسيطة .

ومجمل رأى عند تولستوى أن التسوية الاجتماعية ينبغي ألا تبدأ من أسفل كما يريد الثائرون حينما ينادون بانتزاع الملك من مالكه بالعنف والقوة ؛ وإنما يجب أن تبدأ من أعلى بتنازل تلقائى من جانب الأثرياء والأغنياء .

وكان تولستوى يعلم حق العلم أن الهبوط إلى مستوى وضع فى الحياة يهدم كثيراً من مظاهر الثقافة العالية ؛ وكان يخشى ألا نأخذ برأيه إشفافاً منا على صرح هذه الثقافة أن يتقوض ؛ ولذا فقد كتب رسالة فى الفن يحط من شأن كبار الفنانين ، حتى من أمثال شكسبير وبيتهوفن ، لأن منتجاتهم فوق مستوى العامة ، ولا يفيد منها أكثر الناس ؛ ووجه تولستوى

كل همهم إلى تحطيم ذلك الحائل القائم بين الغنى والفقير ، والذي لا ينجم عنه إلا كل شر .
فاذا سويننا بين الناس فى المطالب والحاجات ارتبطت قلوبهم برباط المودة والائتلاف ، لأن
غرائز الشر من حسد و بغض ومنافسة ، لا تجد لها بعد هذا هدفاً تهاجمه وتتجه وجهته . وفى
هذه الجماعة الجديدة لا تنشأ الحاجة إلى السلطة الحاكمة أو إلى حمايتها بالعنف والقوة ؛ وإنما
يسود العدل إذا لم يعد على وجه الأرض سيد ومسود ؛ وإذا لم يكن بين الإنسان وأخيه
الإنسان غير رابطة الحب والاخاء .

وكانت هذه الرسالة فاتنة جذابة فى بلد كالروسيا بلغ التناقض فيه بين طبقة وطبقة حدًّا
بليغاً . وكان نفوذ تولستوى قوياً شديداً ، فرغب كثير من أهل روسيا فى الأخذ بنظريته
الاجتماعية . وحاول بعضهم بالفعل أن ينقل هذا الرأى الجديد من عالم القول إلى عالم العمل
بتأسيس مستعمرات لا يكون للملكية أو العنف فيها أثر . ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل ،
ولم يفلح تولستوى فى إقامة مبدئه الجديد حتى فى بيته وبين أهله وذويه ، وحاول أن يوفق بين
حياته الخاصة وبين نظرياته ، فتنازل عن حبه للصيد ، ولم يأكل اللحم إشفافاً على الحيوان ،
ولم ينتقل بقطار أو سيارة ، ودفع كل مآدره عليه قلمه من ربح إلى جمعيات الاحسان ، وأخذ
يفلح أرضه بنفسه ، وارتدى ثياباً خشنة ، وعمل حذاءه بيديه .

ولكنه — رغم هذا — لم يستطع أن يصد تيار المعارضة الشديد ، حتى بين أفراد
أسرته وأقربائه وأعزائه . فقد أنكرت زوجته ؛ ولم يرض أبناءه أن ينشأوا كما ينشأ الفقراء ،
والمال لديهم وفير ؛ وظنوا بأبيهم مساً أو ضرباً من الجنون . وأخذ الكتاب والأدباء يعارضون
رأيه فى الملكية ولم يعترف له أحد من معارفه أنه يعيش عيش المسيحى المؤمن . وقد أدرك
تولستوى نفسه فى نهاية الأمر — كما يتبين من مذكراته اليومية — أنه فشل فى بث
أفكاره بين الناس ، وأن آراءه لا تصلح للانتشار . ولم يثابر هو نفسه على العيش وفقاً لمبدئه .
وقد جاءت فى مذكراته هذه العبارة : « أى تولستوى ! هل أنت تعيش وفقاً لعقيدتك ؟
كلا . إني لأموت خجلاً من نفسى ، وإني لأأثم أستحق الازدراء » .

ولما بلغ الرجل الثالثة والثمانين أحس بالموت يدنو منه ، ففر من بيته ليلاً ، وطفق يهيم
على وجهه حتى مات فى العراء وحيداً مخيَّب الرجاء فى نظراته وآماله .

ولعله من التعسف على الرجل ومن عدم الإنصاف له بعد موته أن نقول إن رأيه في الاجتماع والدين والسياسة قد انتهى إلى ما انتهت إليه مدينة أفلاطون الفاضلة أو نظام جان جاك روسو الاجتماعي ؛ ولئن كان تولستوى قد ضل السبيل في بعض رأيه ؛ وفشل بعض الشيء في بث عقيدته ، فلقد أصاب كل النجاح كأديب في قصصه ورواياته وتصوير عصره وأبناء جيله . ونحن — فضلاً عن هذا — ندين له بالكثير من النظر الاجتماعي . فقد كان له علينا أثر لا ينكر ؛ وليس من المبالغة أن نقول إن أحداً من المفكرين من معاصريه — حتى كارل ماركس أو نيتشه — لم يؤثر في ملايين البشر كما أثر فيها هذا الرجل . وتستطيع أن تلمس رأيه في كل فكرة نائمة تنبت في رأي أبناء هذا الجيل . ويخطئ بعض قارئيه فهمه فيحسبونه بلشفيًا ، والرجل من البلشفية براء ؛ فالبلشفية ترمى إلى سحق من يعاديها ؛ ويرمى هو إلى التوفيق بين الأفراد عن طريق العطف والحب ، والبلشفية تعطى الدولة — وهي شيطان تولستوى — نفوذاً واسعاً على الفرد ، وتركز السلطة ، وتنكر الله ، وتعمل على إثارة الجماهير ؛ وهو ما لم يقل به تولستوى أو يعتقد فيه . ورغم هذا كله تستطيع أن تقول إن أحداً من الثائرين في روسيا في القرن التاسع عشر لم يمهّد السبيل (للينين) و(تروتسكي) كما فعل هذا الرجل عدو الثورات ، الذي طالما نادى بأن التوفيق بين الجماعات شرط ضروري لإنشاء عالم خير من عالمنا هذا . وقد حرمت السلطة نشر مؤلفاته ، فنسخت بخط اليد وبلغت آلاف القراء ، ودفعت مواطنيه إلى الجراءة فكان — رغم إرادته — أكبر باعث على الثورة الروسية ، كما كان روسواً أكبر باعث على الثورة الفرنسية .

ومن العجيب أن تعاليم تولستوى كان لها أثر عكسي على ألوف أخرى من الناس . فبينما ترى روسيا تأخذ بمبدأ الثورة على الجماعة ، ترى غاندى وأتباعه في الهند يأخذون عن هذا الرجل مبدأ المقاومة السلمية ، ويلجأ غاندى إلى سلاح تولستوى الذي لا يتلطح بالدماء ، فيهجر الصناعة الآلية ، ويأخذ الصناعة البيئية ، ويطلب الاستقلال الاقتصادي عن طريق الحد من الحاجة المادية .

إن الفكرة الرفيعة لا تتجه وجهة بعينها ، وإنما يسيرها الزمن كما تسير الرياح السفينة .
وإنما الآراء قوى محرّكة تنتج الحركة دون أن تعلم إلى أين المسير ، وليس عجيباً إذاً أن تكون
الروسيا الثائرة والهند المسالمة من صنع هذا الرجل ؛ فإنك إن أردت نشر السلام ألقيت بين
سطور هذا الكاتب ما يدعم رأيك ويقوى حجّتك ، وإن أردت ثورة نفسية على قدس
الدولة وجدت لنفسك غذاءً فيما كتب !

إن كل رجل سياسى أو اجتماعى يستطيع أن يستمد من نقد تولستوى لعصره ثاقب
الرأى ونافذ البصيرة ؛ كما يستطيع كل أديب أن يستوحى هذا الشاعر العظيم ، الذى أنزل
بنفسه العذاب كي يفكر للجميع ، وكى يحارب الظلم بقوة القلم !
كان تولستوى مثلاً يحتذى فى قوله وفعله ، ونال من الشهرة أقصاها ، ولم يحاول أن
يستغل نفوذه فى الوصول إلى مناصب الحكم ، وإنما خصصه للخدمة الإنسانية جميعاً ؛ ولم
يخضع كفاحه لخلق عالم جديد إلا لسلطة واحدة على الأرض : هى سلطة الضمير الذى يهتدى
إلى الحق ويسلك إليه سواء السبيل .

اعترافات تولستوى

— ١ —

يقول تولستوى :

« ولدت لأبوين مسيحيين ، ونشأت على العقيدة المسيحية الأرثوذكسية ، وتلقيت تعاليمها في عهد الطفولة وإبان الصبا والشباب . ولما بلغت منتصف المرحلة الجامعية في دراستى — وكنت حينئذ فى الثامنة عشرة من عمرى — لم أعد أعتقد فى أى شىء مما تعلمت فى الصغر .

وما عندى من ذكريات لهذا العهد يدل على أننى لم أكن جاداً فى عقيدتى ، وإنما كنت أركن إلى ما تلقيت من عقائد وما كان يتردد على ألسنة الكبار من حولى . وحتى هذا الركون لم يكن على أساس وظيف .

وأذكر أنى قبل أن أبلغ الحادية عشرة التقيت فى بيتى فى يوم من أيام الأحد بغلام اسمه فلاديمير مليون (وقد مات من زمان بعيد) ، وكان حينئذ طالباً بإحدى المدارس الثانوية ، وصرح لى بأنهم كشفوا بمدرستهم كشفاً جديداً . كشفوا أنه ليس هناك (إله) وأن كل ما تعلمنا عنه من اختراع المعلمين . وكان ذلك فى عام ١٨٣٨ . وأذكر أن إخوتى الكبار قد اهتموا لهذا النبأ اهتماماً عظيماً . وقد دعونى إلى الاشتراك معهم فى الحديث ؛ وأذكر أن جدلاً عنيفاً دار بيننا ، ثم تلقينا النبأ باهتمام عظيم ، وأجمعنا الرأى على أنه جائز يحتمل التصديق .

وأذكر كذلك أن أخى الأكبر دمترى — وكان حينئذ يطلب العلم بالجامعة — قد كرّس نفسه فجأة للدين ، وتحمس له تلك الحماسة الحارة التى كانت من طبيعته . وبدأ يؤدى صلوات الكنيسة جميعاً بغير إخلال ، ويصوم ويحيا حياة خلقية طاهرة . فلم نكف جميعاً — حتى الكبار منا — عن السخرية منه ، وأطلقنا عليه لسبب لست أعرفه اسم « نوح » .

وأذكر أن موسن پوشكن — أمين جامعة قازان في ذلك الحين — دعانا مرة إلى الرقص في بيته ، وأخذ يغري أخى في شيء من التهمك (وكان أخى رافضاً للدعوة) بقوله : إن داود نفسه رقص أمام السفينة . وكنت أعطف على هذه النكات التي تصدر ممن يكبروننى سناً ، واستخلصت منها أنه من الضروري للإنسان أن يتعلم أصول الدين وأن يؤدي الصلاة في الكنيسة ، ولكن ليس من الضروري له أن يفعل ذلك وهو جاد .

وأذكر كذلك أنني قرأت فلتير وأنا في باكورة الصبا ، وأن سخريته لم تصدم مشاعري ، بل أدخلت على نفسى سروراً عظيماً .

وهذا الانحراف عن العقيدة الدينية الذي أصابني يصيب كذلك عادة الشباب الذين يبلغون مستواناً في التعليم . وهو يحدث في أكثر الأحيان — فيما أظن — على هذه الصورة : يعيش المرء — كما يعيش غيره من الناس — على أسس وقواعد لا تتفق البتة وتعاليم الدين . إن العقائد الدينية لا تلعب دوراً في الحياة أو في صلات الناس الاجتماعية ولا يحسب المرء لها حساباً في حياته الخاصة . فهي لا تتصل بالحياة ولا ترتبط بها . فإن صادفتك مرة صادفتك كظاهرة خارجية منفصلة عن الحياة تمام الانفصال . يستحيل عليك أن تحكم على الرجل من حياته وسلوكه إن كان مؤمناً أو غير مؤمن . وإذا كان ثمة خلاف بين الرجل الذي يعترف بإيمانه جهاراً وبين الرجل الذي ينكر الإيمان ، فإن هذا الخلاف ليس في صالح المؤمن . فإن ممارسة الدين والاعتراف به كان وما يزال شائعاً بين الأغبياء والقساة والمتكبرين . وكثيراً ما تجدد المقدرة والأمانة والثقة وكرم الطباع وحسن السلوك بين الكافرين .

إن المدارس تعلم الصبية أصول الدين وترسلهم إلى الكنائس ، كما أن موظفي الحكومة ينبغي لهم أن يقدموا الشهادات التي تدل على صدق إيمانهم . ولكن الرجل من أبناء طائفتنا الذي أتم تعليمه ولم يلتحق بخدمة الحكومة يستطيع اليوم أن يعيش عشرة أعوام أو عشرين عاماً دون أن يذكر مرة أنه يعيش بين قوم مسيحيين وأنه هو نفسه يُعدّ عضواً في الكنيسة الأرثوذكسية (وكان ذلك أيسر على المرء فيما سلف من الأيام) .

ولذا فإن العقيدة الدينية التي يعتنقها المرء — في الوقت الحاضر أو فيما مضى — بمجرد التصديق ، والتي تستند إلى الضغط من خارج ، تتلاشى تدريجاً من تأثير المعرفة والخبرة

بالحياة التي تعارضها ولا تتفق معها . وكثيراً ما يحيا المرء متوهماً أنه باقٍ على العقيدة التي تلقاها في الصغر بغير مساس ، في حين أنه لم يبق له في الواقع منها أثر .

قص لي مرة (س) قصة خروجه على الدين . و (س) رجل ذكي صادق . قال إنه وهو في السادسة والعشرين من عمره خرج مرة للصيد ، وبلغ مكانا استقر به لكي يقضى فيه المساء . وهناك في ساعة الغروب خرّ راكعاً للصلاة . وتلك عادة احتفظ بها من عهد الطفولة . وكان أخوه — ورفيقه في الصيد — مستلقيا فوق العشب يرقبه . ولما فرغ (س) من صلاته وأخذ يعدّ نفسه لاستقبال الليل ، قال له أخوه : « أفما زلت تفعل ذلك ؟ » .

ولم يتبادلا الحديث بعد ذلك . ولكن من ذلك اليوم امتنع (س) عن أداء صلواته كما امتنع عن زيادة الكنائس . ولبث على ذلك ثلاثين عاما . ولم يفعل ذلك لأنه عرف عقائد أخيه واعتنقها . ولم يفعل ذلك لأنه وصل في نفسه إلى قرار معين . وإنما فعل ذلك لأن كلمة أخيه كانت كغمزة الاصبع للحائط الذي أوشك أن ينهار من ثقله . وقد بينت له كلمة أخيه أن ما كان يحسبه في نفسه عقيدة ثابتة لم يكن في حقيقة الأمر إلا شكاً مطلقاً ، ولذلك فإن الدعوات ورسم علامات الصليب والركوع أثناء الصلاة حركات لا معنى البتة لها . ولما أدرك خلوها من المعنى لم يستطع أن يتابعها .

وهكذا كانت الحال ، ولا تزال — فيما أظن — مع الكثرة الكثيرة من الناس . وأقصد الناس ممن هم في مستوانا العلمى ، المخلصين مع أنفسهم . ولست أقصد أولئك الذين يتظاهرون بالإيمان ويتخذونه وسيلة لبلوغ مآربهم الدنيوية (إن أمثال هؤلاء هم أكثر الناس كفرا . لأن الإيمان إذا كان وسيلة لبلوغ المآرب الدنيوية أبعد ما يكون عن الإيمان الصحيح) إن أولئك الذين يبلغون مستوانا في التعليم عندهم من ضوء المعرفة والحياة ما يبدد ذلك الحجاب المصطنع الذي يستر بصائرهم . ومنهم من شهد هذا الحجاب فأزاله ، ومنهم من لم يشهده بعد .

إن العقيدة الدينية التي أُلقيت في الصغر اختفت عندي كما اختفت عند غيري ، مع هذا الفارق بيني وبينهم : أنى بدأت من سن الخامسة عشرة أقرأ الكتب الفلسفية ، وأنى أحسست بالنفور من تعاليم الدين في سن مبكرة جدا . ولما بلغت السادسة عشرة امتنعت عن أداء الصلاة وامتنعت عن زيارة الكنيسة كما امتنعت عن الصوم بمحض إرادتي . ولم أصدق

ما تعلمته في الصغر وإنما اعتقدت في شيء آخر . ولم يكن بوسعي أن أعبر عما كنت أعتقد فيه ، اعتقدت في إله ما ، أو على الأصح لم أنكر وجود الله . غير أنني لم أستطع أن أقول ما كنه ذلك الإله . ولم أنكر المسيح أو تعاليمه . ولكنني كذلك لم أستطع أن أقول ما خفى تلك التعاليم .

والآن إذ أعود بذكرياتي إلى ذلك العهد أرى بجلاء أن عقيدتي — وأقصد العقيدة الحقيقية الفذة التي آمنت بها ، تلك التي كانت إلى جانب غرائزي الحيوانية تحفزني إلى الحياة — هي الإيمان بضرورة النهوض بنفسي إلى مرتبة الكمال . بيد أنني لم أستطع أن أقول ما كنه ذلك الكمال وما هدفه الذي يرمى إليه . حاولت أن أبلغ الكمال العقلي فدرست كل ما استطعت وكل ما ألقته الحياة في سبيلي . وحاولت أن أبلغ الكمال في الإرادة فوضعت القواعد التي أسير على نهجها . وحاولت أن أبلغ الكمال الجثماني فنميت قواي ورشاقة جسمي بكل أنواع التمرينات البدنية ، وعودت نفسي على الاحتمال والصبر بجميع وسائل الحرمان . وقد حسبت أن في ذلك كله بلوغ الكمال . وكان بالطبع أول ما بدأت به الكمال الخلقى . ولكنني سرعان ما استبدلت به الكمال المطلق . استبدلت به رغبة في رفع مستواي لا في عيني ، ولا عند الله ، ولكن في أعين الآخرين . وسرعان بالتالي ما تحول هذ الجهد إلى رغبة في أن أكون أقوى من الآخرين أي أن أكون أبعد منهم صيتاً ، وأكثر أهمية ، وأوفر مالاً .

— ٢ —

وسأقص عليكم في يوم من الأيام تاريخ حياتي خلال تلك السنوات العشر من شبابي . وستجدون فيه ما يمس إحساسكم وما يزيدكم علماً . ولست أحسب إلا أن عدداً عديداً من الناس قد مرت بهم هذه التجربة . ولقد أردت بكل نفسي أن أكون إنساناً نزاعاً إلى الخير . ولكنني كنت وأنا أبحث عن الخير شاباً تعمر العاطفة قلبه ويعيش في عزلة عن الناس . وكلما حاولت أن أعبر عن هذه الرغبة الخالصة في نفسي — وهي رغبة طيبة من الناحية الخلقية — قوبلت بالسخرية والازدراء . وكلما استسلمت للعواطف الدنيئة قوبلت بالثناء والتشجيع .

إن الناس يقدسون الطموح وحب السلطان والطمع وحب الشر والكبر والغضب والانتقام . فلما خضعت لهذه الشهوات صرت كغيرى من الرجال وشعرت أنهم غنى راضون . وكنت أسكن مع عمة لى شفيقة . وهى وإن تكن من أظهر الناس ذيلاً إلا أنها كانت دائماً تقول لى إنه ليس أحب إلى نفسها من أن ينشأ بينى وبين امرأة متزوجة نوع من العلاقات . كانت تقول : « لا يكون الشاب شئ مثل ما يكونه القرب من سيدة من بيت كريم » . وكانت عمى كذلك تتمنى لى السعادة بأن أكون سكرتيراً حريباً لرجل من عظماء الرجال ، وليكن الامبراطور إن أمكن ذلك . ولكن أ كبر سعادة لى فى عينها كانت فى الزواج من فتاة ثرية جداً حتى أصبح مالكاً لأ كبر عدد ممكن من العبيد .

ولست أستطيع أن أعود بذى كرتى إلى تلك السنوات دون أن أحس بالفزع والمقت وألم النفس الشديد . فلقد قتلت الرجال فى الحروب ، وتحديت الكثيرين إلى المبارزة كى أقضى على حياتهم . وقامرت وخسرت ، واستغلت بمجهود الفلاحين ، وحكمت عليهم بمختلف العقوبات ، وعشت عيشة إباحية وخدعت الناس . واقترفت كل الآثام — الكذب والسرقة والزنا بكل ضروبه ، وشرب الخمر ؛ واستخدم العنف والقتل . وقد أثنى الناس على سلوكى فى كل هذا . ويعتبرنى المعاصرون رجلاً كريم الخلق بالنسبة إليهم . وهكذا عشت عشر سنوات .

وفى غضون ذلك شرعت أكتب مدفوعاً بالغرور والطمع والكبر . وفعلت فى كتابتى ما فعلت فى حياتى . فلكى أظفر بالشهرة والمال — ومن أجلهما كنت أكتب — كان لزاماً على أن أخفى الخير وأظهر الشر . وهذا ما فعلت . فلكم حاولت فيما كتبت أن أخفى تحت ستار من عدم الاكتراث أو السخرية ذلك النضال القائم بنفسى الذى يحفزنى إلى الخير والذى يعطى لحياتى معنى ومغزى . وقد نجحت فيما كتبت وظفرت بالثناء .

ولما بلغت السادسة والعشرين من عمرى عدت إلى بطرسبرج بعد الحرب . وهناك التقيت بالكتّاب ، فاستقبلونى كواحد منهم وقابلونى بالنفاق . وقبل أن يتوفر لى الوقت للمشاهدة اعتنقت آراء المؤلفين الذين خالطتهم . وهذه الآراء فى الحياة تحت محو تماماً كل محاولاتى السابقة فى تهذيب نفسى . فلقد أمدتني هذه الآراء بنظرية بررت لى انحلال حياتى .

وهذه هي معتقدات هذه الفئة من الناس — أقصد زملائي في التأليف — في الحياة : كانوا يعتقدون أن الحياة في جملتها تتطور ، وأنا نحن رجال الفكر نلعب أكبر دور في هذا التطور . وأن الفنانين والشعراء من بين رجال الفكر هم أصحاب النفوذ الأكبر . مهمتنا في الحياة أن نعلم الناس . فإن سأل سائل هذا السؤال المطروق « ماذا أعلم ، وماذا أستطيع أن أعلم ؟ » أجابه أن هذا — بناء على نظريتهم — أمر ليس من الضروري أن يُعرف ، فالفنان والشاعر يعلم غيره دون أن يشعر بذلك . وكانوا يعدّونني فنانا وشاعراً من الطراز الأول . فكان من الطبيعي جداً لي أن أعتنق نظريتهم . فكنت كفنان وشاعر أكتب وأعلم دون أن أدري أنا نفسي ماذا أعلم . وكنت من أجل ذلك أنقاضي الأجور ، فأستمع بشهيّ الطعام وبالمأوى والنساء والجمع . وظفرت بالشهرة التي دلّت على أنني كنت أعلم شيئاً له قيمة كبرى .

وهذه العقيدة في معنى الشعر وفي تطور الحياة كانت ديناً وكنت أحد المبشرين به . والتبشير به كان محبباً إلى نفسي يدر على مالا وافرأ . وعشت على هذه العقيدة دهرأ دون أن أشك في صحتها . ولكنني بدأت في العام الثاني — وفي العام الثالث خاصة — من هذه الحياة أشك في نزاهة هذا الدين ، كما بدأت أن أحص حقائقه . وكان أول ما دعاني إلى الشك أني بدأت ألحظ أن المبشرين بهذا الدين لم يكونوا جميعاً على رأى واحد . فبعضهم يقول : نحن خير المعلمين وأكثرهم نفعاً ، فنحن نعلم المطلوب ، ويعلم غيرنا الأخطاء . ويقول بعضهم الآخر : كلا ! نحن المعلمون الحقيقيون ، وإنما أتم الذين تعلمون الخطأ . فهم يتنازعون ويتشاجرون ويتسابون ويحتالون ويخدع بعضهم بعضاً . وكان بيننا كذلك كثيرون لم يعبأوا من أصاب ومن أخطأ ، ولا يهمهم إلا أن يحققوا أطماعهم بهذا الضرب من النشاط الذي نشطناه . وقد اضطرني كل ذلك إلى الشك في صحة ما كنا نعتقد فيه .

وما إن بدأت — فوق ذلك — في الشك في صحة عقيدة المؤلفين نفسها حتى بدأت كذلك أرقب المبشرين بها عن كثب . واقتنعت أخيراً بأن كل المبشرين بهذا الدين تقريباً — أقصد الكتاب — كانوا قوما لا خلاق لهم ، وأن أكثرهم ذوو شخصيات وضيعة تافهة . وأنهم أشد انحطاطاً من أولئك الذين قابلتهم من قبل في حياتي الحرية المنحلة . غير أنهم

كانوا على ثقة من أنفسهم ، راضين عن أنفسهم . ولا يكون كذلك إلا رجل غاية في القداسة ، أو رجل لا يعرف ما هي القداسة . فثارت نفسى ضد هذه الطائفة من الناس ، وثرثرت ضد نفسى ، وأدركت أن تلك العقيدة كانت خداعاً .

ومن عجب أنى أدركت هذا الخداع ونبذته ، ولكنى لم أنبذ ذلك اللقب الذى خلعتة على هذه الفئة من الناس ، وأقصد لقب الفنان والشاعر والمعلم . وبلغت بى السذاجة أنى تصورت أنى شاعر وفنان وأنى أستطيع أن أعلم الناس جميعاً دون أن أعرف ماذا أعلم . وسلكت مسلكاً يتفق وهذا التصور .

وأكسبتنى عشرتى لهذه الطائفة رذيلة جديدة : وتلك أنى زدت استكباراً إلى درجة الشذوذ ، واستولت على عقيدة جنونية أن مهمتى أن أعلم الناس دون أن أعرف ماذا أعلم . وإنى لأحزن وأفزع وأسخر من نفسى ، بل إنى ليثور فى نفسى إحساس يشبه كل الشبه ذلك الإحساس الذى يستولى على المرء فى مستشفى المجانين ، حيناً أعود بذاك كرتى إلى ذلك العهد ، وأذكر حالتى العقلية وحالة أولئك الناس (بالرغم من أن ألوفاً من هذا الطراز يعيشون بيننا اليوم) .

كنا إذن جميعاً فى ذلك الحين مقتنعين بضرورة الخطابة والكتابة ، وبضرورة إخراج الكتب بأسرع ما يمكن وبأكثر ما يمكن . وأن ذلك كله مطلوب لصالح البشر . وقد ألفت الألوفاً منا الكتب وطبعوها لكى يعلموا الناس ، برغم ما كان بيننا من خلاف وبرغم ما كنا نتبادل من ألفاظ السباب . ولم ندرك أننا لم نعرف شيئاً وأننا لا نستطيع الإجابة عن أبسط سؤال فى الحياة : ما الخير وما الشر ؟ ولكننا جميعاً — برغم ذلك — صممنا آذاننا عما يقوله بعضنا ، وتكلمنا فى وقت واحد ، حيناً نؤيد ما يقوله الآخرون ونثنى عليهم لكى نظفر منهم بالثناء والتأييد ، وحيناً متغاضبين — كأننا فى مستشفى من مستشفيات المجانين .

وأوف العمال يبذلون أقصى الجهد ، ويعملون ليلاً ونهاراً ، يرصون الحروف ويطبعون ملايين الكلمات التى يحملها البريد إلى أنحاء روسيا جميعاً ، ونحن لا نكف عن التعليم ، ولا يتسع لنا الوقت بأى حال من الأحوال لأن نعلم الناس ما يكفيهم . ولا نفتأ نغضب لأننا لا نلقى من الناس ما يكفى من التنبه والالتفات .

كان ذلك أمراً عجباً ، ولكنه اليوم أمر مفهوم . ذلك أننا كنا في أعماق نفوسنا نحب أن نظفر من المال والثناء بقدر ما نستطيع . ولكي نحقق هذا الغرض لم نستطع إلا أن نؤلف الكتب ونكتب في الصحف . وهذا ما فعلنا ولكننا لكي نقوم بهذا العمل الذي ليس من ورائه جدوى ولكي نشعر في الوقت نفسه بأننا قوم لهم أهميتهم في المجتمع كان لابد لنا من نظرية تبرر ما نبذل من جهد . ولذلك فقد صغنا هذه النظرية فيما بيننا ، قلنا « إن كل ما هو كائن معقول ، وإن كل كائن يتطور . وأن الكائنات جميعا تتطور عن طريق الثقافة . والثقافة تقاس بمقدار انتشار الكتب والصحف . ونحن نحصل على المال ونظفر باحترام الناس لأننا نؤلف الكتب ونحرر الصحف . وإذن فنحن أنفع الناس وخيرهم جميعا » ولا بأس من هذه النظرية لو اتفقنا في الرأي . ولكن أحدا يعبر عن فكرة ما ويعبر الآخر عن فكرة تعارضها كل المعارضة ، وإذن فأمرنا يحتاج إلى التدبر . بيد أننا أهملنا ذلك . فالناس يدفعون لنا المال ، ومن ينضم إلينا في الرأي يكيل لنا الثناء . ولذا فقد كان كل منا يبرر موقفه .

ويتضح لي الآن بجلاء أننا كنا في حالة لا تختلف عن مستشفى المجانين في شيء . ولكي في ذلك الحين لم تساورني إلا رغبة غامضة . وكنت أحسب الناس جميعا مجانين ، وليس فيهم عاقل سوى ، شأني في ذلك شأن كل مجنون .

وهكذا عشت ست سنوات أخرى مسترسلا في هذا الجنون حتى تزوجت . وفي خلال تلك الفترة رحلت إلى الخارج . وقد قوت الحياة في أوروبا^(١) وتعرفني إلى القادة ورجال العلم فيها يقيني — الذي آمنت به — بضرورة الجهاد في سبيل السكال . فقد وجدت أن هؤلاء الرجال يعتقدون هذه العقيدة عينا . وقد اتخذت هذه العقيدة في نفسى الصورة العادية التي تتشكل بها في أذهان الكتلة الغالبة من المتعلمين في عصرنا . كانوا يعبرون عنها بكلمة « التقدم » وقد بدا لي حينئذ أن لهذه الكلمة معنى . ولم أدرك بعد أنى — وقد أرق جنبيّ

(١) يميز الروسون عادة بين أوروبا وروسيا .

هذا السؤال : ما هي أحسن حياة أحيائها ! وهو السؤال الذى يوجهه كل حى — لم أدرك
أنى حين أجيب عن هذا السؤال بقولى « عِشْ مسيراً التقدم » إنما أنا كالرجل فى السفينة
يدفعها الموج والريح إذ يجيب عن هذا السؤال « إلى أين ندفع الفلك » — وهو السؤال
الوحيد الهام الذى يشغله — بقوله « إن السفينة تسير بنا إلى مكان ما »

ولم ألاحظ ذلك حينئذ : إنما كنت بين الحين والآخر — وبدافع الغريزة لا بدافع
العقل — أثور على هذه الخرافة الشائعة فى ذلك العصر ، وهى الخرافة التى يُخفى بها الناس
عن أنفسهم عجزهم عن فهم الحياة ... ومثال ذلك أنى إبان إقامتى فى باريس شهدت منظر
تنفيذ الإعدام ، فتبين لى مما شهدت أن عقيدتى الخرافية فى التقدم لا تقوم على أساس ثابت .
رأيت الرأس ينفصل عن الجسد ، ورأيتهما يُلقى بهما معاً فى صندوق فأدركت بكل كيانى
— لا بعقلى — أن كل نظرياتنا عن التقدم فى عصرنا لا تبرر هذه الفعلة الشنعاء . كما أدركت
أن هذا العمل شيء لا ضرورة منه حتى إن رآه ضرورياً كل إنسان من بدء الخليقة وبرره
بأية نظرية من النظريات . وإذن فالحكم الذى يفصل بين الخير والشر ليس ما يقول الناس
وما يعملون ، وليس عقيدتهم فى التقدم ، إنما هو قلبى وهو أنا . وقد كان موت أخى مثلاً
آخر يثبت أن العقيدة الخرافية فى التقدم لا تكفى هادياً لنا فى الحياة . كان عاقلاً ، طيباً ،
رزينا . ثم أصابه المرض وهو لا يزال فى ريعان الشباب ، وظل يعاني السقام عاماً كاملاً .
ثم مات ميتة أليمة دون أن يفهم لماذا كان يعيش ، بل دون أن يفهم لماذا لا بد له أن يموت
ولم يجد — ولم أجد مثله — نظرية من النظريات تجيب عن هذه الأسئلة خلال موته البطيء
الأليم . ولم تكن هذه سوى أمثلة نادرة من الشك ، ولقد واصلت حياتى فعلاً معلناً إيمانى فى
التقدم . وكان ينبغى لى فى ذلك الحين أن أصوغ عقيدتى فى هذه العبارة « كل شيء يتطور ،
وأنا أتطور معه : أما لماذا أتطور مع كل شيء فسوف أدركه فى يوم من الأيام » .

وعند عودتى من الخارج استقر بى المقام فى الريف ، وحدث أنى شغلت نفسى بالمدارس
الريفية وكان هذا العمل يلائم ذوقى بنوع خاص ، لأنه لم يتطلب منى أن أواجه المغالطة التى
اتضححت لى ومثلت أمام ناظرى عند ما حاولت تعليم الناس عن طريق الأدب . وكنت
الآن كذلك أعمل باسم « التقدم » ، ولكنى بدأت أنظر إلى نظرية التقدم نظرة نقدية .

قلت لنفسى « إن التقدم فى بعض نواحي تطوره قد سار سيرا خاطئا . والمرء لا بد له مع أطفال الفلاحين السذج أن يعمل بروح الحرية المطلقة ، فيمكنهم من اختيار طريق التقدم الذى يحبون » . وفى الواقع كنت دائما أدور حول مشكلة واحدة لا تحل . وتلك هى : كيف يعلم المرء دون أن يعلم ماذا يعلم . لقد أدركت أثناء اشتغالى بالدوائر العليا للنشاط الأدبى أن المرء لا يستطيع أن يعلم دون أن يعلم ما ذا يعلم . لأنى رأيت الناس جميعا يعلمون أشياء مختلفة ، ويتنازعون بين أنفسهم فلا يفلحون إلا فى إخفاء جهلهم بعضهم من بعض . ولكنى هنا مع أبناء الفلاحين فكرت فى تحاشى هذه الصعوبة بأن جعلتهم يتعلمون ما يحبون . وإنى لأسخر الآن من نفسى حين أذكر كيف كنت أتعثر وأنا أحاول أن أشبع رغبتى فى تعليم الناس فى حين أنى فى أعماق نفسى كنت أعرف جيدا أنى لا أستطيع أن أعلم غيرى شيئا مما يحتاجه لأنى لم أكن أعرف ما يحتاج . وبعد أن قضيت عاما فى العمل المدرسى رحلت إلى الخارج مرة أخرى لأكتشف كيف أعلم الآخرين دون أن أعلم شيئا .

وبدا لى أنى تعلمت هذا فى الخارج . وفى عام تحرير الفلاحين (سنة ١٨٦١) عدت إلى روسيا مسلحا بكل هذه الحكمة . ولما أصبحت حاكما^(١) بدأت أعلم الفلاحين غير المتعلمين فى المدارس ، كما أعلم الطبقة المتعلمة عن طريق مجلة نشرتها حينذاك . وبدا لى كأن الأمور تسير على ما يرام ، غير أنى أحسست أنى لست سليم العقل ، وأن الأمور لا يمكن أن تستمر طويلا على هذا النوال . وكدت أبلغ من اليأس ما بلغت بعد ذلك بخمسة عشر عاما ، لولا أن جانبا من جوانب الحياة بقى غامضا لم أتكشفه بعد ، وتعشمت فيه السعادة . وذلك هو الزواج .

وبقيت عاما كاملا أشتغل بالتحكيم والمدارس والمجلة . وبلغ منى الإنهاك مبلغه — نتيجة لاضطرابى العقلى بصفة خاصة — وكنت كحكّم أكا فح كفا شديدا . ونتيجة نشاطى فى المدارس غامضة مظلمة . ومجهودى فى المجلة كره ممقوت (وكنت من وراء كل ذلك أرمى إلى غرض واحد : وذلك أن أعلم الناس جميعا ، وأن أخفى أنى لم أعرف ماذا أعلم) أنهكنى هذا الجهد حتى أصابتنى العلة فى عقلى أكثر مما أصابتنى فى جسدى ، فنبذت

(١) الحكم فى روسيا من يصلح بين الفلاحين وأصحاب الأراضى .

كل شيء ، وفرت إلى أهل بشكير في مراعيهم ، كي أستنشق الهواء العليل ، وأحتسى شرابهم (وهو شراب مخمر مجهز من لبن الفرس) وكي أحيا حياة حيوانية بحتة .
وتزوجت بعد عودتي من بشكير . وقد صرفتني الظروف الجديدة للحياة العائلية السعيدة تماما عن كل بحث عن المعنى العام للحياة . وتركزت حياتي كلها في ذلك الحين في أسرتي وزوجتي وأطفالي — ومن ثم تركزت في عنايتي بالتزود من وسائل العيش . وشغلني جهدي لمجرد تهيئة أنسب الظروف الممكنة لحياتي وحياة أسرتي عن الجهاد في سبيل كمال النفس الذي استبدلت به بعد فترة الجهاد في سبيل الكمال عامة — وهو الجهاد في سبيل « التقدم » .
وهكذا انقضت خمس عشرة سنة أخرى .

وبرغم أني أصبحت أنظر إلى التأليف كأنه عديم الأهمية ثابرت على الكتابة خلال هذه الأعوام الخمسة عشر . وقد ذقت من قبل الإغراء بالتأليف : وهو الإغراء بالجزاء المالى العظيم والثناء على ذلك العمل التافه . فكرست نفسي له كوسيلة لرفع مستوى المادى والقضاء في نفسى على كل سؤال ينشأ عن معنى حياتي الخاصة أو عن معنى الحياة عامة .
فواصلت الكتابة أثبت بين السطور ما كنت أعتبره الأمر الوحيد الصادق : وهو أن يحيا المرء لكي يظفر بأكثر ما يستطيع لنفسه ولأسرته .

هكذا عشت . ولكن منذ خمس سنوات حدث لى أمر عجيب جدا . كانت تمرى فى مبدأ الأمر لحظات من الحيرة والارتباك فى الحياة ، كأنى لم أعرف كيف أعيش أو ماذا أعمل . وأصابنى الخور والاكتئاب . ثم انقضت هذه السحابة المظلمة ، وواصلت العيش كما كنت أفعل من قبل . ثم عاودتنى لحظات الحيرة أكثر من ذى قبل . وكانت تتخذ دائما صورة واحدة ، وأرق جنبي هذا السؤال : لماذا كل هذا ؟ وإلام يؤدى بنا ؟

وبدا لى أول الأمر أن هذا السؤال وما يشبهه ناب لا يؤدى إلى غرض . وظننت الأمر جليا وانحما ، وأنى إن أردت أن أجد للمشكلة حلا فإن ذلك لا يكلفنى جهداً كبيراً .
إلا أن الوقت لم يتوفر لى فى تلك اللحظة الراهنة . وليس أيسر لى من أن أجد لسؤالى جواباً إن أنا أردت ذلك . وأخذت هذه الأسئلة تخطر لى فى فترات متقاربة ، وألحّت على إلحاحاً بحيث لم يعد لى مندوحة عن الإجابة عنها . وأضحت كقطرات النداد تسقط فى مكان واحد فتتجمع حتى تصبح بقعة واحدة سوداء .

وحدث لى ما يحدث لكل من يقض مضجعه مرض باطنى قاتل . تبدو على المريض أولاً أعراض طفيفة من التوعك لا يعيرها النفاتا . ثم يتكرر ظهور هذه الأعراض حتى تصبح فترة واحدة متصلة من العناء والألم . ويشتد الألم ، وقبل أن يستطيع العليل أن يلتفت حواله يجد أن ما كان يحسبه توعكا طفيفا قد بات لديه أهم شيء في الحياة . أنه الموت !

ذلك ما حدث لى . وأدركت أنه لم يكن توعكا طارئا ، وإنما هو أمر جلل . كما أدركت أنه لا مناص من الإجابة عن الأسئلة التى ترد على خاطرى ما دامت لا تنى عن الإلحاح . وحاولت بالفعل أن أجيب عنها ، وبدأت لى سخيفة ساذجة صبيانية . وما كدت ألمسها وأحاول الإجابة عنها حتى اقتنعت فى الحال (أولا) بأنها ليست صبيانية سخيفة . إنما هى أهم مسائل الحياة وأبعدها غوراً و (ثانيا) بأنى مهما حاولت لن أجد لها حلا . وقبل أن أشغل نفسى بضبعة « سمارا » أو بتربية ابنى أو بتأليف كتاب ، كان لا بد لى أن أعرف لماذا أفعل ذلك . وما دمت لا أدرك السبب لم أستطع أن أفعل شيئا ، بل ولم أستطع أن أعيش . فإن انصرفت إلى إدارة ضيعتى — الأمر الذى شغلنى كثيراً فى ذلك الحين — قفز إلى ذهنى فى الحال هذا السؤال « نعم سيكون لى ستة آلاف دزياتنا ^(١) من الأرض فى حكومة « سمارا » ، وثلاثة آلاف جواد . ولكن ماذا بعد هذا ؟ » وتبلبلت خواطرى ، ولم أدر فيم أفكر . وإن فكرت فى الخطة التى أسير عليها فى تربية أبنائى قلت لنفسى « ولكن لماذا ؟ » . وإن فكرت فى طريقة للترفيه عن الفلاحين ، سألت نفسى فى الحال « وماذا يهمنى من ذلك ؟ » . وإن فكرت فى الشهرة التى تجلبها لى مؤلفاتى حدثت نفسى قائلا : « حسنا . إنك ستصبح أبعد صيتا من (جوجول) أو (بوشكن) أو (شكسبير) أو (مولير) أو أرفع ذكراً من كتّاب العالم طرّاً — ولكن أى طائل لك من وراء ذلك ؟ » ولم أستطع البتة أن أجد لذلك جوابا . ولم تهمنى الأسئلة ، وكان لا بد لى من الإجابة عنها توا . وإن لم أحب عنها استحالت على الحياة . ولكنى لم أجد جوابا . وأحسست أن ما كنت أستاذت إليه قد انهار ، وأنى لم أعد أجد لى عمادا . إن ما عشت من أجله لم يعد له وجود ، ولم يبق لى فى الحياة غرض .

(١) تبلغ مساحة الدزياتنا نحواً من ٢٢٢ فدانا .

آلت حياتى إذن إلى الركون . فكنت أنفـس وآ كل وأشرب وأنام ، ولم يكن لى بد من ذلك . ولكن لم يكن للحياة عندى وجود ، لأنى لم تكن لى رغبـات أستطيع أن أعتبر تحقيقها أمراً معقولاً . إن رغبـت فى شىء ، أدركت سلفاً أنى سواء أشبعت رغبـتى أم لم أشبعها لن أظفر من وراءها بطائل . ولو أن جنـية هبطت إلى وتطوَّعت بتحقيق رغبـاتى لما عرفت ماذا أطلب . وإن كنت فى لحظات النشوة أحس بشىء إن لم يكن رغبة فهو عادة خلقتها الرغبات السابقة ، فأنى فى لحظات الصحو أدرك أن هذه الرغبة وهم باطل وأن ليس لى فى الواقع ما أشتهيه . بل إنى لم أرغب حتى فى معرفة الحقيقة لأنى أدركت ما تنطوى عليه . وكنت أشبه شىء برجل أمعن فى مسيره حتى بلغ حافة جبل شديد الانحدار فرأى بجلاء أنه لم يعد أمامه غير الهلاك . وكان يستحيل على أن أقف ، ويستحيل على أن أتقهقر ، ويستحيل على أن أغـمض عيني ، أو أن أغـض الطرف عن هذه الحقيقة : وهى أنه لم يبق أمامى سوى الألم والموت المحقق — وذلك هو الهلاك المطلق .

كنت إذن رجلاً سليم الجسم موفور الثراء ، ومع ذلك أحسست أنى لا أستطيع مواصلة العيش . ودفعتنى قوة لا تقاوم إلى أن أخلص نفسى من الحياة بطريقة ما . ولا أستطيع أن أقول إنى « رغبـت » فى الانتحار . ولكن القوة التى كانت تجذبـنى بعيداً عن الحياة كانت أقوى وأعظم وأبعد مدى من أية رغبة أخرى . وهى شبيهة بقوة الجهاد السابق فى سبيل الحياة ، غير أنها تسير فى اتجاه مضاد . جذبـنى كل قوتى بعيداً عن الحياة . وتواردت على ذهنى خواطر الموت بصورة طبيعية كما تواردت على خاطرى من قبل الأفكار المختلفة عن كيفية إصلاح حياتى . وكانت هذه الخواطر الجديدة شديدة الإغراء حتى كان لزاماً على أن أكون لبقاً مع نفسى خشية أن أترع فى إخراجها إلى حيز التنفيذ . ولم أشأ أن أتعجل ، لأنى أردت أن أستخدم كل جهد لحل المشكلة ، وقلت لنفسى « إن لم أستطع توضيح الأمور فسوف يكون لى دائماً متسع من الوقت » وفى ذلك الحين — وأنا رجل حبانى الحظ السعيد — أخفيت عن نفسى حبلاً خشية أن أشنق نفسى به على حامل وسط غرفتى كنت أخلع عليه ملابسى وحيداً كل مساء . وامتنعت عن الخروج للصيد بالبندقية خشية هذه

الطريقة اليسيرة للقضاء على حياتى . ولم أعرف أنا نفسى ماذا أريد . كنت أخشى الحياة ، وأرغب فى الفرار منها . ومع ذلك كنت أرجو من ورائها شيئاً ما .

وحلّ بى كل هذا فى وقت كان يحوطنى فيه من كل جانب ما يعتبره الناس الحظ الكامل السعيد . فلم أبلغ بعد الخمسين ، وكانت لى زوجة طيبة تحببى وأحبها ، وأطفال طيبون ، وضبعة واسعة وتمحسن وتنسج رقعتها دون أن أبذل فيها جهداً كبيراً من جانبى . وكان أقاربى ومعارفى يحترمونى أكثر من أى وقت سبق . وأطرى على الناس ، وكنت أستطيع — دون أن أخدع نفسى كثيراً — أن أعتبر اسمى ذائع الصيت . ولم أكن البتة مجنوناً أو مريض العقل ، بل على العكس من ذلك كنت أتمتع بقوة ذهنية وبدنية قلما صادفتها بين أضرابى من الرجال . فكنت أستطيع من الناحية البدنية أن أجارى الفلاحين وهم يحصدون الزرع . وكنت أستطيع من الناحية العقلية أن أعمل ثمانى أو عشر ساعات متواصلات دون أن أشكو وخيم العواقب من هذا الإجهاد . وانتهيت وأنا فى هذا الموقف إلى أنى لا أستطيع العيش ، ولما كنت أخشى الموت كان لا بد لى أن أمكر مع نفسى كي أتجنب الانتحار .

وتبدّت لى حالتى العقلية فى هذه الصورة : ليست حياتى سوى مهزلة سخيفة يمثلها معى شخص آخر ، حاقداً على كائناً لى . ومع أنى لم أعترف « بشخص ما » خلقتى فإن هذه الصورة — وهى أن شخصاً ما يمثل معى مهزلة شريفة سخيفة بوضعه إيّاى فى هذه الدنيا — هى التى كانت تعبر عما فى نفسى تعبيراً طبيعياً .

وبدا لى — بغير قصد — أن هناك فى مكان ما شخصاً يلهو بمشاهدة الطريقة التى عشت بها ثلاثين أو أربعين عاماً : وأنا أتعلم وأتطور وأبلغ رشدى جسماً وعقلاً ؛ كما يلهو بمشاهدتى — وقد بلغت الرشد العقلى فصعدت إلى قمة الحياة حتى انبسطت أمامى جميعها ، ووقفت فوق تلك القمة كالأبله أرى بجلاء أن الحياة فارغة لا شىء فيها ، ولم يكن ولن يكون فيها شىء ما . وقد سره بالفعل مرأى ...

ولم أدر إن كان ذلك « الشخص » الذى يسخر منى موجوداً أو غير موجود . ولم أستطع أن أرى معنى معقولاً لأى عمل منفرد من أعمالى ، أو لحياتى بأسرها . وإنما أدعشنى أنى

استطعت أن أتجنب فهم ذلك من بادئ الأمر — وقد عرفه الناس أجمعون من زمان بعيد .
واليوم أو غداً يحل المرض والموت بى أو بمن أحب (وقد حلاً بالفعل) . ولا يبقى إلا النتن
والدود . وسوف تتردى فى وهدة النسيان — إن عاجلاً أو آجلاً — شئونى جميعاً مهما تكن .
وسوف لا يكون لى وجود . وإذن فلماذا أوصل بذل المجهود ؟ . . . وكيف لا يستطيع المرء
أن يرى هذه الحقيقة ؟ وكيف يواصل العيش ؟ إن هذا الأمر عجب ! إن المرء لا يستطيع أن
يحيا إلا وهو مثل بنشوة الحياة . فإذا ما صحا استحال عليه ألا يرى أن الأمر كله خداع فى
خداع ! هذا كل ما فى الأمر ، وليس فيه ما يتسلى به المرء أو يلهو . والحياة كلها
سخف وقسوة .

روى فى الأساطير الشرقية من زمان بعيد أن وحشاً هائجاً أدرك رجلاً مسافراً فى البداء .
وامتطاع المسافر أن يفر من الوحش ولكنه وقع فى بئر جافة ، ورأى فى أسفل البئر أفعى
فتحت فكيها لتلتهمه . ولم يجرؤ المسكين أن يخرج من البئر خشية أن ينقض عليه الوحش
السكسر . ولم يجرؤ أن يقفز إلى قاع البئر خشية أن تلتهمه الأفعى ، فأمسك بغصن نما فى شق
فى جدران البئر وتعلق به . وكلت يده ، وأحس أن لا بد له من أن يستسلم عاجلاً إلى الهلاك
الذى ينتظره فى أسفل البئر أو أعلاها ، ولكنه ما فتئ يتعلق بالغصن . ثم رأى فأرين ،
أحدهما أبيض والآخر أسود ، يدوران بانتظام حول ساق الغصن الذى تعلق به ويقرضانه قرصاً .
ولا بد للغصن من أن ينكسر بعد فترة قصيرة فيسقط بين فكى الأفعى . رأى المسافر ذلك
وأدرك أن لا مناص له من الهلاك . وتلفت حوالبه وهو لا يزال متعلقاً بالغصن فرأى بضع
قطرات من العسل فوق أوراق الغصن ، فمد إليها لسانه ليلعقها . وهكذا تعلق بغصن الحياة
وأنا أعلم أن أفعى الموت تنتظرنى ولا مفر منها ، تتأهب لترقنى إرباً إرباً ، ولم أستطع أن أفهم
لماذا وقعت فى مثل هذا العذاب . وحاولت أن ألق العسل الذى كنت أتغذى به من قبل ،
ولكن العسل لم يعد يمتعنى ، والفأران الأبيض والأسود — وهما الليل والنهار — يقرضان
الغصن الذى أعلق به . وكنت أرى الأفعى بوضوح وجلاء ، ولكن العسل لم يعد حلو
المذاق : ولم أر سوى الأفعى التى لم يكن منها مناص والفأرين ، ولم أستطع أن أبعد عنها
ناظرى . وليست هذه بالأسطورة ، ولكنها الحقيقة الواقعة التى لا حل لها والتى يدرى بها
كل إنسان .

ولم تعد تحدعنى مسرات الحياة الموهومة التى كانت فيما سلف تخفف من فزعى من الأفعى . وكـم قيل لى « إنك لا تستطيع أن تدرك معنى الحياة ، فلا تفكر فيها ، ويكفيك أن تعيش » ولكن ذلك القول لم يجدنى فتيلا ، ولم أستطع أن أحيا دون أن أدرك معنى الحياة كما فعلت من قبل أمداً طويلا . ولم يسعنى الآن إلا أن أرى الليل والنهار يتعاقبان ويسيران بى نحو الموت . هذا كل ما أراه ، لأن ذلك وحده هو الحق ، وكل ما عداه باطل . ولم أعد أجد حلاوة فى قطرتى العسل اللتين حولتا عيني عن الحقيقة المرة أكثر من أى شىء آخر : وهما حبي لأسرتى وحبي للكتابة — أولفن كما كنت أسميها .

وفكرت فى « الأسرة » وقلت لنفسى إن أسرتى — زوجتى وأطفالى — هم كذلك من البشر ، وهم فى نفس الموضع الذى أنا فيه . ولا بد لهم من أحد أمرين : إما أن يعيشوا فى أكلوبة أو يروا الحقيقة المرة . لماذا يعيشون ؟ ولماذا ينبغي لى أن أحبهم وأن أراهم وأريهم وأراقبهم ؟ ألكى يصلوا إلى هذا اليأس الذى أحس به أو يكونوا أغبياء ! ولما كنت أحبهم لم أستطع أن أخفى الحقيقة عنهم : وكل خطوة نخطوها فى سبيل المعرفة تؤدى إلى إدراك الحقيقة ؛ والحقيقة هى الموت .

ثم فكرت فى الفن والشعر . وكانت نفسى — تحت تأثير النجاح والثناء الذى ظفرت به — قد اطمأنت كثيرا إلى أن المرء يستطيع أن يمارس الفن رغم اقتراب الموت — ذلك الموت الذى يهلك كل شىء حتى مؤلفاتى وذكراها — ولكنى سرعان ما أدركت أن ذلك كذلك خداع ، واتضح لى أن الفن زينة للحياة . وما يغرى بها . بيد أن الحياة فقدت جاذبيتها عندى ، وإذن فكيف أستطيع أن أجتذب الآخرين ؟ ولما كنت فيما مضى لا أحيا حياتى الخاصة . وإنما أحمل على أمواج حياة أخرى — ولما كنت كذلك أعتقد أن للحياة معنى ، وإن كنت لا أستطيع التعبير عنه — فإن انعكاس الحياة فى الشعر والفن بكل ضروبه كان يدخل السرور إلى قلبى . فكان يسرنى أن أنظر إلى الحياة فى مرآة الفن . ولكنى لما بدأت أبحث عن معنى الحياة ، وأحسست بالضرورة إلى أن أحيا حياتى الخاصة ، أصبحت تلك المرآة بالنسبة لى غير ضرورية ، زائدة عن الحاجة ، بل باتت شيئا يدعو إلى السخرية ويبعث على الألم . ولم أعد أستطيع أن اهدى نفسى بما أرى فى المرآة — وذلك هو أن موقفى سخيـف

يدفع إلى اليأس . كنت أستمع بما أشاهد في المرأة حينما كنت أعتقد في أعماق نفسي أن حياتي معنى . حينئذ كان يسرني ما يعتور الحياة من أسباب اللهو والمآسى وما يمازجها من شعور وجمال وفزع . ولكنى — لما أدركت أن الحياة مفرعة خلو من المعنى — لم تعد تسرني الصور التي تنعكس في المرأة . لم تعد حلاوة الشهد عذبة المذاق وأنا أشهد الأفعى وأشهد الفيران تقضم عمادى وسندى .

وليت الأمر وقف عند هذا الحد . فلو أنى أدركت أن الحياة تخلو من المعنى واكتفيت بهذا لاحتملت الحياة صابراً وعلمت أن هذا هو نصيبى منها . ولكنى لم أقنع بذلك . ولو أنى كنت كالرجل الذى يعيش في الغابة ويعلم أن ليس منها مخرج لاستطعت أن أعيش . ولكنى كنت كرجل ضل في الغابة ، فلما فزع لضلاله انطلق هنا وهناك محاولاً أن يجد الطريق إلى الخلاص . وهو يعلم أن كل خطوة يخطوها تزيد ارتباكاً واضطراباً . ولكنه مع ذلك لا يسعه إلا أن يتخبط في المسير .

حقاً لقد كان الأمر يدعو إلى الهلع الشديد . ولكى أخلص نفسي من هذا الفزع أردت أن أقتل نفسي . كنت أكابد الفزع مما ينتظرني — وكنت أعلم أن ذلك الفزع أشد هولاً مما كنت فيه . غير أنى — مع هذا — لم أستطع أن أنتظر النهاية صابراً . وحاولت أن أقنع نفسي أنه إذا انقطع في قلبي شريان ، أو إذا انفجر شيء في جوفى ، أو إذا حدث ما يشبه هذا ، فإن حياتي سوف تنتهى على أية حال . ولكنى — برغم ذلك — لم أستطع أن أصبر حتى هذه النهاية الطبيعية . وكان فزع الظلام شديداً جداً ، وأحسبت أن أحرر نفسي منه بأسرع ما استطعت شتقاً أو رمياً بالرصاص . هذا هو الشعور الذى جذبني بشدة نحو الانتحار .

وكررت لنفسى هذه العبارة « ولكنى ربما سهوت عن شيء أو أسأت الفهم ، إذ لا يمكن أن تكون هذه الحالة من اليأس من طبيعة الإنسان ! » وأخذت أتلمس حل هذه المشاكل جميعاً في كل فروع المعرفة التى اكتسبها الإنسان . وظللت طويلاً أكّد في البحث ، لا مدفوعاً بمجرد الرغبة الهينة في التطلع والمعرفة ، أو بشيء من عدم الاكتراث . وإنما كنت

دائب البحث مصرا عليه . لا أنى عنه صباحا ولا مساء . وكنت كالرجل بين فكى الموت يبحث عن النجاة — غير أنى لم أعد بطائل .

بحثت فى كل العلوم . ولكنى لم أظفر بما أردت ، بل اقتنعت بأن كل من كان مثلى يبحث فى المعارف الإنسانية عن معنى الحياة لا يجد مثلى شيئا . لم أظفر بشيء ، ولم يكن هذا كل ما فى الأمر . ولكنى أيقنت يقينا لا شك فيه أن الأمر الذى دفعنى إلى اليأس — وأقصد خلو الحياة من المعنى — هو ذاته الشيء الوحيد الذى لا يعتريه شك والذى يستطيع أن يعرفه الإنسان .

بحثت فى كل مكان . وحيث أنى قضيت حياتى فى العلم ، وحيث أنى كنت كذلك شديد الصلة بعالم البحث العلمى ، فقد تيسر لى أن أتصل بالعلماء والباحثين فى كل فروع المعرفة . وقد أطلعونى — راغبين — على كل معارفهم ، لا فى الكتب وحدها ولكن فى أحاديثهم كذلك حتى كان بين يديّ كل ما يقوله العلم فى هذه المشكلة الحيوية .

وبقيت طويلا لا أستطيع أن أصدق أن العلم لا يجب عن مشكلة الحياة بأكثر مما يقدم لنا فعلا . وبدا لى من زمان بعيد — حينما رأيت صفة الجد والأهمية التى يعلن بها العلم نتائجه ، وهى نتائج لا علاقة لها البتة بمشاكل الحياة الإنسانية الحقيقية — بدا لى أن هناك شيئا لست أفهمه . لقد طال إحساسى بالجنون أمام العلم ، وبدا لى أن انعدام التوافق بين ما يجب به وما أسأل عنه لا يرجع إلى نقص فى العلم ؛ وإنما يرجع إلى جهلى . غير أن الأمر بالنسبة إلىّ لم يكن لهوا ولا لعبا ، وكانت المسألة مسألة حياة أو موت . وانتهيت — كرها — إلى الاعتقاد بأن أسئلتى هى وحدها الأسئلة المشروعة التى على أساسها تقوم المعارف كلها ، كما انتهيت إلى الاعتقاد بأنى لا يصح أن ألام على أسئلتى . وإنما على العلم تقع اللائمة إن كان يزعم أنه يجب عنها .

إن سؤالى الذى حفزنى إلى حافة الانتحار وأنا فى الخمسين من عمرى كان أيسر الأسئلة جميعا . وهو يتردد فى صدر كل إنسان من الطفل الغر إلى الراشد الحكيم : هو سؤال لا يستطيع المرء أن يحيا دون أن يجب عنه — كما تبين لى من تجاربى . ذلك السؤال هو : « ما وراء ما أفعل اليوم أو ما سوف أفعل فى غدى — بل ما وراء حياتى كلها ؟ » .

وأستطيع أن أعبر عن السؤال بصيغة أخرى فأقول « لماذا ينبغي لى أن أعيش ، ولماذا أرغب فى أى شىء أو أعمل أى شىء ؟ » وأستطيع كذلك أن أعبر عن السؤال بهذه العبارة : « هل فى حياتى معنى لا يهدمه الموت الذى لا مفر منه والذى ينتظرنى ؟ » .

وقد بحثت فى العلم عن جواب لهذا السؤال الوحيد الذى عبرت عنه بصيغ مختلفة . ووجدت أن المعارف الإنسانية كلها بالنسبة إلى هذا السؤال تنقسم إلى ما يشبه نصفى الكرة التى تجد فى طرفيها قطبين ، أحدهما سالب والآخر موجب ، ولم أهتد عند هذا القطب أو ذاك إلى حل لمشاكل الحياة .

ذلك أن مجموعة من مجموعات العلم لا تعترف بالمشكلة فيما يظهر ، ولكنها تجيب بوضوح ودقة عن أسئلتها الخاصة المستقلة . وتلك هى مجموعة العلوم التجريبية ، وعلى قمة هذه المجموعة علوم الرياضة . أما المجموعة الأخرى فتعترف بالمشكلة ولكنها لا تجد لها حلا . وتلك هى مجموعة العلوم المعنوية ، وفوق قممها الميتافيزيقا (أو علوم ما وراء الطبيعة) .

وقد شغفت منذ حداثنى بالعلوم المعنوية . وجذبتنى العلوم الرياضية والطبيعية فيما بعد . وقد قنعت بالإجابات المزيفة التى قدمتها لى هذه العلوم إلى أن تحدد السؤال فى ذهنى وإلى أن تضخم هذا السؤال فى نفسى وبات يتطلب الجواب الحاسم السريع .

قلت لنفسى فى دائرة العلوم التجريبية : « إن كل شىء يتطور ويتنوع ويسير نحو التعقيد والكمال . ولهذه الحركة قوانينها التى تسيّرهما . وما أنت إلا جزء من كل . فإن أنت درست الكل بقدر ما تستطيع ، وإن أنت درست قانون التطور ، فهمت مكانتك فى المجموع ، وعرفت نفسك » ويخجلنى أن أعترف الآن بأنى اقتنعت بهذا الرأى فى وقت من الأوقات . كان ذلك حينما كنت أنا نفسى أسير فى طريق التعقيد والتطور . فكانت عضلاتى تنمو وتقوى ، وكانت ذاكرتى تغنى وتثرى ، وقدرتى على التفكير والفهم فى ازدياد . وكنت أتمو وأتطور جملة وقد أحسست بهذا النمو فى نفسى فكان من الطبيعى لى أن أعتقد أن ذلك هو القانون العالمى الشامل الذى ينبغي لى أن ألتزم فيه حلا لمشكلة حياتى . غير أن نموى الشخصى توقف بعد حين . وشعرت أنى لا أزدهر ، بل أذبل : فعضلاتى أخذت فى الضعف ، وأسنانى تتساقط . ورأيت أن قانون التطور لا يفسر لى شيئا . وليس ذلك فحسب . بل إن مثل هذا القانون لم يوجد ولن يوجد . وأدركت أنى إنما جعلت مما وجدت

فى نفسى فى فترة من فترات حياتى قانونا ثابتا . وأنعمت النظر فى تعريف هذا القانون ،
واتضح لى أنه لا يمكن أن يكون هناك قانون للتطور الذى لا يقف عند حد . وبات من
الجليّ أن هذا القول : « أن كل شىء فى الفضاء اللانهائى والزمان الذى لا يحد يتطور ويسير
نحو الكمال والتعقيد والتنوع لا يدل على شىء » . إنما هذه كلمات لا تؤدى إلى معنى . لأن
اللانهائى ليس به معقد ولا بسيط ، وليس به تقدم أو تأخر ، وليس به حسن أو قبيح .

وفوق كل هذا فإن سؤالى الشخصى « من أكون أنا بما يحيش فى نفسى من رغبات ؟ »
بقى بغير جواب . وأدركت أن هذه العلوم التجريبية شائقة جدا ، جذابة جدا ، ولكنها
حينما تُطبق على مشكلة الحياة تفقد دقتها ووضوحها . كلما بعدنا بهذه العلوم عن تطبيقها على
مشكلة الحياة زادت دقة ووضوحها . وكلما حاولنا أن نجيب بها عن مشكلة الحياة زادت
غموضا وإملالا . وإذا نحن اتجهنا إلى ذلك القسم من العلوم الذى يحاول أن يجيب عن
مسائل الحياة — أى إلى علم وظائف الأعضاء وعلم النفس وعلم الحياة وعلم الاجتماع — قابلنا
فقراً مريعاً فى الفكر ، وغموضاً شديداً ، وادعاء لا مبرر له البتة لحل مشا كل بعيدة عن
الموضوع ، وتناقضا متواصلا بين كل ثقة فى الموضوع وبين الثقات الآخرين أو حتى بينه
وبين نفسه . وإذا نحن اتجهنا صوب فروع العلم التى لا تختص بحل مشكلة الحياة ولكنها
تجيب عن مسائلها العلمية الخاصة ابتهجنا لقدرة العقل الإنسانى ، ولكننا عرفنا سلفاً أنها
لا تجيب عن مشا كل الحياة . إن هذه العلوم تكتفى بإهمال تلك المشا كل . ويقول علماؤها
« ليس لدينا ما نجيب به عن هذا السؤال : من أنت ولماذا تعيش . وليس يهمنى ذلك .
ولكنك إن أردت أن تعرف قوانين الضوء أو الاتحادات الكيميائية ، أو قانون تطور
الكائنات الحية ، وإن أردت أن تعرف قوانين الأجسام وتركيبها ، والعلاقة بين الأعداد
والكميات ، وإن أردت أن تعرف قوانين عقلك ، فإن لدينا لكل ذلك إجابات واضحة
دقيقة مقطوعاً بصحتها » .

ونستطيع أن نعبر بوجه عام عن العلاقة بين العلوم التجريبية ومشكلة الحياة بهذه
العبارة : السؤال « لماذا أعيش ؟ » الجواب « فى الفضاء اللانهائى ، وفى الزمان اللانهائى ،
تتغير أشكال الجزئيات المتناهية فى الصغر إلى صور من التعقيد لا نهاية لها ، فإن فهمت
قوانين تغير الصور أدركت لماذا تعيش فوق الأرض » .

ثم قلت لنفسي في ميدان العلوم المعنوية « إن الإنسانية كلها تعيش وتتطور على أساس من المبادئ والمثل الروحية التي تهتدى بها . وهذه المثل تعبر عنها الديانات والعلوم والفنون وأشكال الحكومات . وهذه المثل ترتفع شيئاً فشيئاً ، وتتقدم الإنسانية إلى أقصى سعادتها ورفاهيتها . وأنا جزء من الإنسانية ، وإذن فمهمني أن أدفع العلم بالمثل الإنسانية إلى الأمام وأن أعمل على تحقيقها » . وقد اقتنعت بذلك في وقت كنت فيه ضعيف العقل . ولكن عند ما اتضحت مشكلة الحياة أمام عينيّ بجلاء تدهورت هذه النظريات في الحال . ولا داعي إلى أن أذكر ذلك الغموض الذي لا تمازجه الريبة والذي تعلن به هذه العلوم النتائج التي تصل إليها بعد دراسة جانب يسير من الإنسانية كأنها نتائج عامة . ولا داعي إلى أن أذكر التناقض القائم بين الطوائف المختلفة التي تؤمن بهذا الرأي وتحمس له ، فهم يختلفون في تحديد المثل الإنسانية . وأكتفي بأن أذكر أن غرابة النظرية — ولا أقول سخفها — تنحصر في أنك لكي تجيب عن هذا السؤال الذي يواجه كل إنسان « من أنا ؟ » أو « لماذا أعيش ؟ » أو « ماذا ينبغي أن أفعل ؟ » يجب عليك أولاً أن تجيب عن هذا السؤال « ما هي حياة المجموع » (وهي مجهولة له ، ولا يعلم منها إلا قطرة يسيرة في فترة من الزمن قصيرة جداً) . إن المرء لكي يعلم ما هو يجب أولاً أن يفهم هذه الإنسانية الغامضة كلها ، التي تتألف من أفراد مثله لا يفهم أحدهم الآخر .

ولا بد لي أن أعترف أنه قد مر بي وقت اعتقدت فيه ذلك . وكان ذلك عند ما كانت لي مثلي العليا الخاصة التي أعزبها والتي أبرر بها نزواتي . وكنت أحاول أن أصوغ نظرية تيسر للناس أن يحسبوا نزواتي قانون الإنسانية كلها . ولكن عند ما نشأت في ذهني مشكلة الحياة في وضوح تام ، تبددت هذه الإجابة في الحال هباء منثوراً . وأدركت أنه كما أن من العلوم التجريبية ما هو علم صحيح ، ومنها ما هو شبه علم يحاول أن يقدم الإجابات عن مسائل فوق مقدورها ، فكذلك في عالم العلوم المعنوية هناك سلسلة كاملة الحلقات من العلوم المائعة التي تحاول أن تجيب عن أسئلة ليست في حدود اختصاصها . وأشبه العلوم من هذا الطراز — العلوم القانونية والعلوم التاريخية الاجتماعية — تحاول أن تحل مشا كل حياة الإنسان بزعمها — كل منها بطريقة الخاصة — أنها تقرر مشكلة حياة الإنسانية كلها .

وكما أن الإنسان — في ميدان المعرفة التجريبية — الذي يبحث نخلصاً كيف له أن

يعيش لا يمكن أن يقنع بهذا الجواب : « أدرس في الفضاء الذي لا نهاية له التغيرات التي تطرأ على الذرات التي لا تحصى فتعقد تركيبها تعقيدا لا يقف عند حد في زمن يمتد إلى ما لا نهاية . أدرس هذا تفهم حياتك » فكذلك الرجل المخلص لا يمكن أن يقنع بهذا الجواب : « أدرس حياة الإنسانية كلها التي لا نعرف لها بداية ولا نهاية ، بل والتي لا نعرف منها حتى اليسير ، تفهم حياتك » . وأشبه العلوم المعنوية كأشبه العلوم التجريبية يحوطها الغموض وعدم الدقة والسخافات والمتناقضات كلما بعدت عن المشاكل الحقيقية . إن مشكلة العلم التجريبي هي تتابع السبب والمسبب في مظاهر الكون المادية . فإذا ما تعرض العلم التجريبي إلى مسألة السبب النهائي أصبح هراء لا معنى له . وموضوع العلم المعنوي معرفة مغزى الحياة الأول . فإذا ما تعرض للبحث في الأسباب والمسببات في الظواهر المختلفة (كالظواهر الاجتماعية والتاريخية) أصبح كذلك هراء لا معنى له .

فالعلم التجريبي إذن لا يعطينا سوى المعرفة الإيجابية ، ويعرض عظمة العقل الإنساني حينما لا يتعرض في بحوثه لموضوع السبب النهائي . وعلى العكس من ذلك لا يكون العلم المعنوي علما يعرض عظمة العقل الإنساني إلا إذا استبعد جانبا المسائل التي تتعلق بالأسباب والمسببات في ظواهر الكون ، ولم ينظر إلى الإنسان إلا من حيث علاقته بالسبب النهائي . هذا هو موقف علوم الميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة) أو الفلسفة في ميدان العلوم التي يتكون منها أحد قطبي الدائرة . هذا العلم يعرض هذه الأسئلة في وضوح وجلاء « من أنا ؟ وما الكون ؟ ولماذا وجدت ، ولماذا وجد العالم ؟ » . ومذ وجد هذا العلم كان دائما يقدم لنا جوابا واحداً لا يتغير . وسواء يسمى الفيلسوف خلاصة الحياة الكائنة في نفسى والكائنة في كل موجود « بالفكرة » أو « المادة » أو « الروح » أو « الإرادة » فهو لا يفتأ يقول إن هذه الخلاصة موجودة ، وإني أنا منها ، ولكنه لا يعرف لماذا ، ولا يقول لماذا ، إن كان من المفكرين الدقيقين . وأنا أسأل « لماذا توجد هذه الخلاصة ؟ وماذا ينبج عن وجودها الآن ووجودها مستقبلا ؟ » . . . والفلسفة لا تجيب عن هذا السؤال ، بل أنها لتسأله هي نفسها . وإن كانت فلسفة حقيقية فإن كل جهدها ينحصر في وضع هذا السؤال في صيغة واضحة . وإن لزمنا واجبها لا تستطيع الإجابة عن السؤال « من أنا ، وما الكون ؟ » إلا بقولها « كل شيء ولا شيء » كما تجيب عن هذا السؤال : « لماذا ؟ » بقولها « لست أدري » .

وعلى هذا فإنى مهما قلبت هذه الإجابات الفلسفية لا أستطيع أن أظفر بما يشبه الجواب ، لا لأن الجواب لا يتعلق بسؤالى — كما هى الحال فى ميدان العلوم التجريبية الواضح — ولكن لأن الجواب هنا ينعدم ، وذلك على الرغم من أن الجهد العقلى كله يتجه نحو سؤالى بذاته . وبدلاً من الظفر بالجواب يعود المرء بنفس السؤال ، إلا أنه فى صورة معقدة .

أحسست أثناء بحثى عن جواب لمشكلة الحياة أن مثلى كمثل رجل ضل فى غابة . فهو يبلغ رقعة من الأرض الفضاء بين صفوف الأشجار ، ثم يتسلق شجرة ، ويرى الفضاء الذى لا يحدها واضحاً أمام عينه . ولكنه يرى كذلك أن مأواه ليس فى ذلك المكان . ولا يمكن أن يكون . فيتوجه إلى الغابة المظلمة ، ويرى ظلامها الدامس ، ويدرك كذلك أن مأواه لا يمكن أن يكون هناك .

وهكذا أخذت أجول فى تلك الغابة من معارف الإنسان ، وسط أضواء العلوم الرياضية والتجريبية التى أظهرت لى آفاقاً واضحة غير أنها فى اتجاه لا يمكن أن يكون لى فيه مأوى . وكذلك أخذت أجول وسط ظلام العلوم المعنوية فكنت أمعن فى الظلام كلما أمعنت فى المسير ، فاقنعت فى نهاية الأمر بأنه ليس هناك مخرج لى ولن يكون .

ولما أسلمت نفسى إلى الجانب المضىء من المعارف أدركت أنى إنما كنت أحمى بصرى عن المشكلة . ومهما تكن تلك الآفاق الممتدة أمام بصرى واضحة جذابة . ومهما يكن الانغماس فى الفضاء اللانهائى لتلك العلوم خاطفاً للأبصار ، فقد فهمت أنها كلما وضحت قلت إشباعها لحاجتى وقلت قدرتها على الإجابة عن سؤالى .

قلت لنفسى « إنى أعرف ما يصر العلم على كشفه . وليس على امتداد ذلك الطريق جواب عن مشكلة معنى الحياة » . وأدركت أنه بالرغم من أن الهدف المباشر للعلم المعنوى هو أن يجيب عن سؤالى ، فإنه ليس فى هذا الميدان جواب غير ذلك الذى قدّمت لنفسى وهو : « ما معنى حياتى ؟ لاشيء » أو « ما ذا سيعود علىّ من الحياة ؟ لاشيء » أو « لماذا توجد الكائنات ، ولماذا وجدت ؟ لأنها موجودة ولأنى وجدت » .

وفي خلال بحثي عن دائرة واحدة من المعرفة الإنسانية ، ظفرت بعدد لا يحصى من الإجابات التي تتعلق بموضوعات لم أسأل عنها : ظفرت بإجابات عن تركيب النجوم الكيمائي ، وعن حركة الشمس نحو مجموعة هركيوليز ، وعن أصل الأنواع وأصل الإنسان ، وعن صور الذرات الأثيرية الخفيفة المتناهية في الصغر . ولكنني في هذا الميدان من ميادين المعرفة لم أجد جواباً عن سؤال « ما معنى حياتي ؟ » غير هذا « إنما أنت ما تسميه (حياتك) . أنت مجموعة من الذرات التي تماسكت عرضاً واتفاقاً . والتفاعل المتبادل بين هذه الذرات والتغير الذي يطرأ عليها يحدث فيك ما تسميه (حياتك) . وهذا التماسك يبقى فترة من الزمن ، ثم يقف التفاعل بين الذرات فيقف ما تسميه (الحياة) فتنتهي بذلك كل مشاكلك . ما أنت إلا كتلة صغيرة من مادة ما اتحدت أجزاؤها عرضاً . هذه الكتلة الصغيرة تتخمر . وتسمى الكتلة هذا التخمر (حياتها) . ثم تنحل الكتلة ، فينتهي التخمر وتنتهي بذلك كل مشاكلك » . هذا ما يجيب به الجانب الواضح من العلم . وهو لا يسعه إلا أن يجيب كذلك لو سار على مبادئه سيرا دقيقاً .

وترى من هذا الجواب أنه لا يجيب عن السؤال . فأنا أريد أن أعرف معنى حياتي . أما كونها جزءاً من اللانهاي فلا أقول إنه لا يكسب الحياة معنى ، بل أقول إنه يهدم كل ما يمكن أن يكون لها من معنى . وهذا الجانب من العلم التجريبي الدقيق يحاول أن يوفق بصورة غامضة بينه وبين العلم المعنوي وذلك حينما يزعم أن معنى الحياة ينحصر في التطور وفي التعاون مع هذا التطور . ولكن هذه الصورة من صور التوفيق لا يمكن أن تغنينا كجواب للمشكلة نظراً لغموضها وعدم دقتها .

أما الجانب الآخر من العلم — الجانب المعنوي — فهو حينما يلتزم بمبادئه التزاماً دقيقاً ويجيب عن المشكلة إجابة مباشرة ، يجيب دائماً وفي كل عصر بطريقة واحدة . إنه يقول « إن الدنيا شيء غير محدود أو مفهوم . والحياة الإنسانية جزء غير مفهوم من ذلك (الكل) غير المفهوم » . وأنا أستبعد ثانية كل محاولة للتوفيق بين العلوم المعنوية والعلوم التجريبية . وهي تلك المحاولات التي تستند إليها استناداً كاملاً أشباه العلوم كلها التي نسميها شرعية أو سياسية أو تاريخية . في أشباه العلوم هذه نقحم خطأ مرة أخرى فكرة التطور والتقدم ، مع هذا الفارق الوحيد : وهو أنه في المرة الأولى كان التطور يشمل كل شيء ، بينما هو هنا

لا يشمل غير حياة الإنسان . ولكن الخطأ واقع في الحالتين . فالتطور والتقدم في اللانهاى لا يمكن أن يكون له اتجاه أو هدف . ومن ثم فليس فى هذا رأى جواب فيما يختص بسؤالى . وفى العلم المعنوى البحت ، أى فى الفلسفة الحقيقية — لا فى تلك الفلسفة التى يسميها شوبنهاور « الفلسفة المحترفة » التى تنحصر وظيفتها فى تصنيف كل الظواهر الموجودة إلى أبواب فلسفية جديدة وتسميتها بأسماء جديدة — حيث لا يغض الفيلسوف الطرف عن الموضوع الأساسى ، لا تظفر إلا بجواب واحد لا يتغير . وذلك الجواب يقدمه لك سقراط كما يقدمه لك شوبنهاور وسليمان وبوذا .

قال سقراط وهو يتأهب للموت « إننا نقرب من الحقيقة كلما أشرفنا على مفارقة الحياة ، إذ ما الذى نجاهد فى سبيله نحن محبى الحقيقة ؟ إننا نجاهد لى نحرر أنفسنا من الجسد ومن كل الشرور التى تنشأ عن حياة الجسد ! ولما كان الأمر كذلك ، فلماذا إذاً لا نفرح حينما يأتى إلينا الموت ؟ إن الرجل الحكيم يبحث عن الموت طوال حياته ، ولذا فالموت لا يفزعها » .

ويقول شوبنهاور « إذا ما أدركنا أن طبيعة العالم الخفية ليست سوى (الإرادة) ، وأن كل مظاهر الطبيعة — من الحركة اللاشعورية لقوى الطبيعة الغامضة إلى عمل الإنسان الكامل الوعى — إن هى إلا مظاهر لهذه الإرادة ، لم يعد لنا ما يبرر التخلص من النتائج : وذلك أنا إن نبذنا الإرادة وتحلينا عنها طائعين ، ألغينا كذلك كل تلك المظاهر — ذلك التيار الدافق والجهد الذى لا يكل ولا يهدأ فى كل مرحلة من مراحل المظاهر الطبيعية التى منها وعن طريقها يتألف العالم ؛ وتلك الصور المتنوعة المتعددة التى تتلو إحداها الأخرى فى تدرجها ؛ وستختفى مع هذه الصور كل دلائل الإرادة ، وستختفى كذلك فى النهاية الصور العالمية لتلك الدلائل — الزمان والمكان ، والصورة النهائية الأساسية : أى أن كل ما هو ذاتى وكل ما هو موضوعى سوف يتلاشى . إذا لم تكن هناك إرادة فلن يكون هناك مظهر لشيء ولن يكون هناك عالم . إنه لا يبقى أماننا — بالتأكيد — سوى العدم . ولا يقوم فى وجه هذا التحول إلى العدم إلا طبيعتنا وهى إرادة الحياة عينها — وهى نحن ، لأنها عالمنا . وكراهيتنا الشديدة للعدم ، أو بعبارة أخرى رغبتنا فى الحياة ، ليست سوى تعبير آخر عن إرادتنا الشديدة للحياة ، وأننا لسنا سوى هذه الإرادة ، ولا نعرف غيرها شيئاً . وإذن فإن

ما يبقى — بعد إلغاء الإرادة إلغاء تاما — لنا نحن الممثلين بالإرادة ، هو لا شيء ألبته . بل على العكس من ذلك أن عالمنا هذا — وهو جد حقيقى — بكل ما فيه من كواكب ونجوم هو عدم عند أولئك الذين انقلبت لديهم الإرادة أو نبذوها .

ويقول سليمان « باطل الأباطيل — كل شيء باطل . ما فائدة الإنسان من أى عمل يتولاه تحت الشمس ؟ جيل يتولى وجيل يقبل والأرض باقية إلى الأبد ... إن ما كان سوف يكون . وما حدث سوف يحدث ، وليس تحت الشمس جديد . هل هناك شيء تستطيع أن تقول عنه : أنظر ، هذا جديد ؟ كلا . إنه من قديم الزمان الذى سلف . ليس لما سلف ذكرى ، ولن تكون لما يُقبل ذكرى . أنا الذى أعظمكم كنت ملكا على بنى إسرائيل فى بيت المقدس ، ولقد وهبت قلبى للتنقيب والبحث عن طريق الحكمة فى كل ما حدث تحت السماء . هذا العمل المضنى كلف الله به بنى الإنسان ليختبرهم به . ولقد شهدت كل عمل تحت الشمس ، ورأيت أن الكل باطل يبعث على حنق النفوس ... وناجيت قلبى ، وقلت له : هيه ، أنا مالك لضيفة كبرى ، وعندى من الحكمة أكثر من كل من سبقنى ببيت المقدس — أجل ، إن قلبى مغمم بكثير من تجارب الحكمة والمعرفة . ولقد وهبت قلبى لإدراك الحكمة ولمعرفة الجنون والحماقة ، فرأيت أن ذلك أيضا يبعث على حنق النفوس . لأن الحكمة العظيمة تنطوى على الحزن العميق . ومن يزدد علما يزدد أسى .

قلت فى نفسى : الآن انطلق ، ولسوف أمتحنك بالمرح . وإذن فلنتم بمختلف المتع . فكان ذلك باطلاً كذلك . وقلت عن الضحك إنه جنون ، وعن المرح ماذا يجدى ؟ حاولت أن أنعش جسدى بالخمر . وحاولت أن أتمسك بالحماقة حينما كانت الحكمة ترشد قلبى ، حتى أستطيع أن أرى ما فائدة بنى الإنسان من العمل تحت السماء كل يوم من أيام حياتهم . وقت بعمل كثير — شيدت لى بيوتا ، وزرعت الكروم ، وأنشأت الحدائق والبساتين ، وغرست فيها الشجر من كل الثمار . وحفرت البرك أروى من مائها الغابة التى تنمو بها الأشجار . واستخدمت الخدم والإماء ، وولدت الخدم فى بيتى . وامتلكت من قطعان الغنم والماشية أكثر من كل من سبقنى فى بيت المقدس . وجمعت كذلك الذهب والفضة ونوادير الكنوز من مختلف الملوك والأقاليم . وظفرت بالمغنيين والمغنيات ، وبكل ما يلهو به ابن آدم ، كآلات الموسيقى وما إليها . وهكذا كنت عظيما ، وتوفر لى ما لم يتوفر لكل من سبقنى ببيت المقدس .

وبقيت حكمتي معي كذلك . ولم أحرم عيني من كل ما اشتتها . ولم أبعد قلبي عن أى لون من ألوان السرور ... ثم نظرت إلى كل عمل عملته يداي ، وإلى الجهد الذى بذلت . فرأيت أن الكل باطل يبعث على حنق النفوس ، وليس من ورائه جدوى تحت الشمس . ثم التفت إلى التمتع فى الحكمة والجنون والهماقة ... ولكنى رأيتها جميعا تخضع لحادث واحد . فقلت فى نفسى : إن ما يحدث للأحق ، يحدث لى أنا ، فلماذا إذن كنت أكثر منه حكمة ؟ فقلت فى نفسى هذا كذلك باطل . لأن ذكرى الحكيم لا تزيد عن ذكرى الأحمق إلى الأبد ، فكل ما هو كائن اليوم سوف يُنسى جميعه فى الأيام المقبلة . وكيف يموت الحكيم ؟ كالأحمق . فزهدت الحياة ، لأن العمل الذى يتم تحت الشمس يحزننى إذ أن الكل باطل يبعث على حنق النفوس . أجل لقد كرهت كل عمل مارسته تحت الشمس ، لأنى رأيت أنى لا بد تاركة للرجل الذى يخلفنى ... إذ ما ذا يجدى الإنسان كل جهده وكل ما يُحزن قلبه ، ولماذا يعمل تحت هذه الشمس ؛ إن كل أيامه أحزان وكل أعماله آلام . نعم ، حتى فى المساء لا يستقر له بال . إن هذا كذلك باطل . إن الإنسان لا يتمتع بنعمة الأمن حتى يأكل ويشرب ويسرى عن نفسه من عمله . كل شيء متشابه عند الناس أجمعين . وهناك حدث واحد يقع للطيبين كما يقع للأشرار ، ولحبي الخير ومحبي الشر ، وللطاهر والدنس ، ولمن يضحى ومن لا يضحى . والطيب كالخبيث . ومن يُقسم بالباطل ومن يُخشى القسم . إنه شر يتخلل كل ما يقع تحت الشمس ، وكل شيء يتعرض لحادث واحد . نعم ، إن قلوب بنى الإنسان كذلك مليئة بالشر ، والجنة فى قلوبهم ما داموا أحياء ، وبعد ذلك يذهبون إلى الموتى . إن من يعيش بين الأحياء لا ينقطع له أمل : لأن الكلب الحى خير من الأسد الميت ، والأحياء يعلمون أنهم سوف يموتون ، ولكن الموتى لا يعلمون شيئا ، وليس لهم فى الدنيا جزاء ، لأن ذكراهم غابت عن الأذهان . وقد تلاشى كذلك حبهم وبغضهم وما فى قلوبهم من حسد . ولم يعد لهم ضلع إلى الأبد فى أى عمل يتم تحت الشمس ^(١) هكذا قال سليمان ، أو من كتب هذه الكلمات أيا كان .

(١) هذه ترجمة أتولستوى لما جاء فى الكتاب المقدس وهى تختلف قليلا فى بعض المواضع عن نص الكتاب بالإنجليزية .

وهذا ما تحدثنا به الحكمة الهندية :

خرج مرة في عربته (ساكيا مونى) وهو أمير شاب سعيد ، خفى عنه العلم بوجود المرض والشيخوخة والموت . فوقعت عيناه على رجل مسن مغزغ ، تحطمت أسنانه وسال لعابه من فمه . فدهش الأمير الذى خفى عنه حتى اليوم العلم بالشيخوخة . وسأل سائق عربته عما رأى ، وكيف آل هذا الرجل إلى مثل هذه الحال الزرية المقرزة . ولما علم أن ذلك هو المصير المألوف للناس جميعا ، وأن تلك الحال عينها تنتظره بغير مناص — وهو الأمير الشاب — لم يستطع أن يواصل السير ، وأمر السائق أن يقفل إلى البيت راجعا كي يتدبر الأمر . ثم حبس نفسه وأخذ يفكر . وربما وجد فى نفسه ما يعزیه ، لأنه خرج بعدئذ فى العربة مرة أخرى وهو مرح سعيد . غير أنه رأى هذه المرة رجلا مريضا . رأى رجلا هزيلة شاحب اللون قائم العينين يرتعش من شدة الهزال . فوقف الأمير ، الذى خفى عنه العلم بالمرض ، وسأل عما رأى . ولما علم أن ذلك هو المرض الذى قد يتعرض له أى إنسان ، وأنه هو نفسه — وهو الأمير الصحيح البدن الهائى القلب — قد تصيبه العلة فى غده ، عاد إليه ذلك الاكتئاب الذى يحرمه المتعة بحياته ، وأمر سائقه أن يقفل راجعا إلى البيت . وبحث عن العزاء مرة أخرى ، وربما وجده ، لأنه خرج فى عربته للمرة الثالثة قصد النزهة . ولكنه فى هذه المرة الثالثة رأى مشهدا آخر جديدا : رأى جماعة تحمل شيئا فسأل : « ما هذا ؟ » وقيل له : « هذا رجل ميت » . قال : « ما معنى كلمة (ميت) » فقيل له : « إن المرء حين يموت يسمى كذلك الرجل » . واقترب الأمير من الجثة ، ورفع عنها الغطاء ، ونظر إليها ، وسأل « ما الذى سيحدث له الآن ؟ » فقيل له إن الجثة ستوارى التراب . « لماذا ؟ » . « لأنه بالتأكيد لن يعود إلى الحياة ، ولن يصدر عنه غير النتن والدود » . « وهل هذا هو مصير الناس أجمعين ؟ وهل سوف يحدث لى نفس هذا الشيء ؟ هل سوف يدفنونى ، وهل سوف تصدر عنى الرائحة الكريهة ويأكلنى الدود ؟ » . « نعم » . « إلى البيت ! لن أركب عربتى للنزهة ، ولن أفعل ذلك مرة أخرى ! » .

ولم يجد (ساكيا مونى) فى الحياة سلوى ، وقرر أن الحياة أعظم الشرور ، وكرس كل قواه الروحية للتحرر منها ، وليحرر غيره منها ، وقرر أن يفعل ذلك بحيث لا تتجدد الحياة

حتى بعد الموت ، بل تنهار انهياراً كاملاً من جذورها . هذا ما تقول به حكمة الهند كلها .
وهذه إذن هي الإجابات المباشرة التي تقدمها لنا الحكمة الإنسانية ، إذا وجهناها السؤال
عن مشكلة الحياة .

يقول سقراط : « إن حياة الجسد شر وأكذوبة . وإذن فتحطيم حياة الجسد نعمة ،
يجب أن نتمناها » .

ويقول شوبنهاور : « الحياة هي ما لا ينبغي أن يكون — هي شر . والانتقال إلى العدم
هو وحده ما في الحياة من خير » .

ويقول سليمان : « كل ما في الحياة — من حماقة وحكمة وثراء وفقر ومرح وحزن —
باطل وعدم . يموت المرء ولا يبقى منه شيء .. وهذا سخف » .

ويقول بوذا : « يستحيل على المرء أن يعيش وهو يدرك أن الألم والضعف والشيخوخة
والموت أمور لا مفر منها — يجب أن تتحرر من الحياة الممكنة كلها » .

وما ذكره أصحاب هذه العقول الجبارة فكَّرت فيه وأحسَّت به وعبرت عنه ملايين
الملايين من أمثالهم من البشر . وقد فكرت فيه وأحسست به أنا كذلك .

وهكذا ترى أن جولتي في العلوم غرزت لدى روح اليأس بدلاً من أن تحررني منها .
فإن ضرباً من المعرفة لم يجب عن مشكلة الحياة ، وضرباً آخر أجاب إجابة مباشرة تؤيد
يأسى ، وتشير لا إلى أن النتيجة التي وصلت إليها كانت ثمرة للخطأ أو لمرض عقلي ، بل على
العكس من ذلك تدل على أني كنت سليم التفكير وأن أفكاري تطابق النتائج التي وصلت
إليها أقوى العقول البشرية .

ولا فائدة من أن يخدع الإنسان نفسه ، فالكل باطل ! وسعيد من لم يولد : والموت
خير من الحياة ، ويجب على المرء أن يحرر نفسه من الحياة .

ولما لم أجد في العلم ما يشفي غلتي ، بدأت أبحث عن تعليل المشكلة في الحياة نفسها ،
وتعشمت أن أجد التعليل بين من يحيط بي من الناس . وبدأت ألاحظ كيف يعيش هؤلاء
الناس — وهم من أمثالي — وما موقفهم إزاء هذه المشكلة التي انتهت بي إلى اليأس .

وإليكم ما وجدت بين الناس الذين كانوا يشبهوننى فى تربيتهم وأسلوب حياتهم .
وجدت أن للناس الذين يحيون حياتى أربعة مخارج من المأزق الذى كنا جميعاً نتردى فيه .
المخرج الأول هو الجهل . وهو الجهل بأن الحياة شر عبث ، بل وعدم إدراك هذه الحقيقة .
والناس من هذا القبيل — والنساء خاصة أو صغار الشبان وأغبياء الناس — لم يفهموا بعد
تلك المشكلة الحيوية التى واجهت شو بنهور وسليمان وبوذا . إنهم لا يرون الأفعى التى
تنتظرهم كما لا يرون الفيران التى تقرض الغصن الذى يتعلقون به ، وهم يلعقون قطرات الشهد .
غير أنهم يلعقون هذه القطرات من الشهد لفترة وجيزة فقط . ثم يتنبهون بعدئذ لسبب ما إلى
الأفعى والفيران ، فيكفون عن لعقه . ومن هؤلاء لم أتعلم شيئاً .

والمخرج الثانى هو الأبيقورية . يدرك المرء أن الحياة لا رجاء فيها فيستغل ما بين يديه
من مزايا ، ويغض الطرف عن الأفعى والفيران ، ويلعق الشهد بأحسن الوسائل ، وبخاصة
إذا كان الميسور منه وافرأ . ويعبر سليمان عن هذا المخرج بقوله : « ثم اخترت المرح ، إذ أن
خير ما يظفر به الإنسان تحت الشمس هو أن يأكل ويشرب ويمرح . وأن يبقى على ذلك
طوال الأيام التى قدر له الله أن يحياها تحت الشمس . فلتأكل إذن خبزك مسروراً ، واحس
خمرك بقلب مرح ... وعش فى هناء مع الزوجة التى تحب طوال أيام حياتك المليئة بالغرور ...
ذلك نصيبك من الحياة ومن عملك الذى تؤديه تحت الشمس ... كل ما تمد إليه يداك
بالعمل اعمله بكل ما أوتيت من قوة ، إذ أن القبر الذى سوف تتردى فيه لا يحتوى على عمل
أو حيلة أو علم أو حكمة » .

بهذه الطريقة يجعل أكثر الناس من أمثالى حياتهم مستطاعة . وظروفهم تدمهم بأسباب
الرفاهية أكثر مما تدمهم بأسباب المشقة . وغباؤهم العقلى يمكنهم من أن ينسوا أن ميزتهم من
مركزهم الاجتماعى ميزة عارضة . كما أنهم ينسون أن ليس بوسع كل امرئ أن تكون له
قصور عديدة ، وألف زوجة كما كان لسليمان . وينسون أن لقاء كل رجل يتمتع بألف زوجة
ألف رجل بغير زوجة واحدة ، وأن لقاء كل قصر ألف رجل عليهم أن يشيدوه بعرق
الجبين ، وأن الفرصة العارضة التى جعلتنى اليوم كسليمان قد تجعلنى فى غدى عبداً من عبيد
سليمان . إن ضعف الخيال عند هؤلاء الناس يمكنهم من نسيان الأشياء التى أرقت جنبى
بوذا — وهى ضرورة المرض والشيخوخة والموت ، التى سوف تقضى على هذه المتعة اليوم أو غدا .

هكذا يفكر ويشعر أكثر الناس اليوم ممن يسرون على أسلوبنا في الحياة . وقد يصرح بعض هؤلاء الناس بأن هذا الرأي الذى يرونه بفكرهم الضعيف وخيالهم القاصر فلسفة من الفلسفات — يسمونها الفلسفة الإيجابية — ولكن ذلك فى رأى لا يقصيه عن صفوف الناس الذين يلعقون الشهد كى لا يواجهوا المشكلة .

لم أستطع أن أنهج نهج هذه الفئة . ولما لم أكن مثلهم قاصر الخيال لم أستطع أن أخلق فى نفسى هذا الخيال القاصر خلقا . ولم أستطع أن أبعد بصرى عن الفيران والأفعى ، كما لا يستطيع ذلك رجل حى بعد ما تقع عليها عيناه .

والخرج الثالث هو القوة والنشاط . إذا ما أدرك الفرد أن الحياة شر وعبت انهال عليها بالتحطيم . وقليل من الناس يعملون ذلك ، وأولئك هم أصحاب القوة الجبارة والمنطق الصارم . إنهم يدركون سخف النكتة التى يسخر منهم بها القدر ، ويدركون أن الموت خير من الحياة ، وأن خير الأمور العدم ، فيعملون طبقا لذلك ويأتون على هذه السخرية دون توأان مادامت هناك الوسيلة : حبل حول الرقبة ، أو قليل من ماء ، أو سكين يطعن فى القلب ، أو قطار يسير على قضيب . ويزداد عدد أولئك الذين ينفذون ذلك من أبناء طائفتنا يوما بعد يوم . وهم يعملون ذلك فى أغلب الأحيان وهم فى زهرة حياتهم ، حينما تكون قواهم العقلية على أشدها ولم يكتسبوا بعد تلك العادات التى تحبط بعقل الإنسان .

وقد رأيت أن هذه الوسيلة خير الوسائل للنجاة ، وأردت أن أفعلها .

والخرج الرابع هو الضعف . يرى الفرد حقيقة الموقف ، ومع ذلك يتشبث بالحياة ، وهو يعلم سلفا أنها لا تؤدى إلى شئ . والناس من هذا الضرب يعملون أن الموت خير من الحياة ، غير أنهم تعوزهم القدرة على العمل طبقا لما توحى إليهم عقولهم — وذلك أن يسرعوا بالقضاء على هذه الخدعة والقضاء على حياتهم — وكأنهم يترقبون شيئا ما . ذلك هو مخرج الضعف ، لأنى إن عرفت ما هو خير لى ، وكان ذلك فى مقدورى ، فلماذا لا أستسلم لهذا الخير؟ . . . وقد ألفت نفسى رجلا من هذا الطراز .

وهكذا ترى أن أبناء طبقتى من الناس يتفادون التناقض المريع بأربع وسائل . ومهما أعنت الفكر لم أجد غير هذه الوسائل الأربع . إحداها ألا يدرك المرء أن الحياة خلو من المعنى ، كلها غرور وشر ، وأنه من الخير للمرء ألا يعيش . ولم يسعنى إلا أن أدرك ذلك .

وما إن أدركته لم أستطع أن أغمض عيني عنه . والوسيلة الثانية أن تضرب في الحياة كما هي دون أن تفكر في المستقبل . ولم أستطع أن أفعل ذلك . وكنت مثل (ساكيا موني) لا أستطيع أن أخرج راكبا للصيد وأنا أعلم بوجود الشيخوخة والألم والموت . وكان خيالي حيا جدا . ولم أستطع كذلك أن أتهيج بالأحداث العارضة التي تأتي إلى بالمتعة في لحظة ثم تزول . والوسيلة الثالثة أن يدرك المرء أن الحياة شر وسخف فيقضى على حياته بيديه . وقد أدركت ذلك ، ولست أدري لماذا لم أنتحر . والوسيلة الرابعة أن يعيش المرء كما عاش سليمان وشو بنهور — يعلم أن الحياة نكتة سخيفة يسخر منها بها القدر ، ومع ذلك يواصل الحياة ، فيغتسل ويلبس ويأكل ويتحدث إلى غيره بل ويؤلف الكتب . وكان ذلك بقيضا إلى نفسي مؤلما جدا ، ولكني بقيت على هذا الوضع .

وأرى الآن أنني لم أنتحر لأنني أحسست إحساسا غامضا بأن آرائي لم تكن سليمة صحيحة . ومهما بدا لي تسلسل آرائي وآراء الحكماء الذي حدا بنا إلى الاعتراف بخلو الحياة من المعنى — مهما بدا لي ذلك مقنعا لا شك فيه ، فقد بقي في دخيلة نفسي شك غامض في عدالة الحكم الذي وصلت إليه .

وكان الأمر كما يأتي : أدركت بعقلي أن الحياة لا معنى لها . وإذا لم يكن هناك شيء أرق من العقل (وليس هناك ما هو أرق منه . وليس هناك ما يدل على وجود ما هو أرق منه) فالعقل إذن هو خالق الحياة لي . فإذا لم يوجد العقل لم تكن لي حياة . وكيف يستطيع العقل أن ينكر الحياة وهو خالقها ؟ أو بعبارة أخرى : إذا لم تكن هناك حياة ما كان لعقلي وجود ، وإذن فالعقل وليد الحياة . الحياة كل شيء ، والعقل ثمرتها ، ومع ذلك فالعقل ينبذ الحياة نفسها ! وقد أحسست أن في ذلك شيئا من الخطأ .

وقلت لنفسي لاشك أن الحياة شر لا معنى له ، ومع ذلك فقد عشت وما زلت أعيش ، وعاش الناس جميعا وما زالوا يعيشون . فكيف كان ذلك ؟ لماذا نعيش ومن الممكن ألا نعيش ، وهل ليس هناك حكيم غيري وغير شو بنهور يدرك شر الحياة وخلوها من المعنى ؟ . إن التفكير الذي يُظهر عبث الحياة ليس شاقا أو عسيرا ، وقد كان من زمان بعيد مألوفاً للعامة السذج ، ومع ذلك فقد عاشوا وما زالوا يعيشون . فكيف يعيشون جميعا ولا يتطرق إليهم شك في أن الحياة أمر معقول ؟

إن علمى — تؤيده حكمة الحكماء — قد بين لى أن كل شىء على سطح الأرض —
عضوى أو غير عضوى — منسق بمهارة فائقة ، وليس هناك ما هو شاذ سخيف غير موقفى
أنا . وأولئك الحمقى — وأقصد الجماهير الغفيرة من الناس — لا يعلمون شيئاً عن كيفية تنظيم
كل ما فى الدنيا من عضوى وغير عضوى ، ولكنهم يعيشون ، ويبدو لهم أن حياتهم مرتبة
أحكم ترتيب ! ...

خطر لى هذا الخاطر : « ربما كان هناك شىء لم أدركه بعد ؟ فهذه هى طريقة الجهال .
إنهم دائماً يقولون مثلاً أقول . إذا لم يعرف الجاهل شيئاً ما قال إن ما لا يعرفه سخيف . وفى
الحق أنه يبدو أن هناك علماً بأسره من الناس كان يعيش ولا زال يعيش كأنه يفهم معنى
حياته ، لأنه ما كان يستطيع العيش دون فهمه ؛ ولكنى أقول إن هذه الحياة كلها تخلو من
المعنى وإنى لا أستطيع أن أعيش » .

« لا شىء يمنعنا من إنكار الحياة بالانتحار . إذن فلتقتل نفسك ، ولا تجادل بعد
هذا . إذا كانت الحياة لا تسرك فلتقتل نفسك ! إنك تعيش ، ولا تستطيع أن تفهم للحياة
معنى — إذن فلتقض على حياتك ، ولا تحيا عابثاً ، تقول وتكتب إنك لا تفهم الحياة . إنك
تضطرب فى وسط طيب من الناس ، كلهم قانعون ، وكلهم يعلمون ما هم فاعلون . فإن كنت
تجد الحياة كثيية منفرة فلتبتعد ! » .

حقاً لسنا نحن — الذين نؤمن بضرورة الانتحار ولا ننفذه — سوى أضعف الناس ،
وأشدهم تناقضاً . أو بعبارة أوضح نحن أشد الناس غباءً . نملأ الدنيا صياحاً بقبائنا كما يفعل
الأحمق الذى يصيح بغجرية ذات أصباغ . لأن حكمتنا — مهما كانت صادقة — لم تمدنا
بالعلم بمعنى الحياة . فى حين أن الناس أجمعين ، الذين يهتمون الحياة — وهم ملايين —
لا يشكون فى معنى الحياة .

حقاً لقد عاش الناس من أقدم العصور التى عرفت شيئاً عنها — حينما بدأت الحياة —
وهم يعرفون الجدل الخاص بعث الحياة ، التى أظهرت لى خلوها من المعنى ، ومع ذلك فقد
عاشوا ينسبون إلى الحياة شيئاً من المعنى .

منذ أن دبت الحياة فى الناس على صورة من الصور وجدوا للحياة معنى ، وحيوا تلك

الحياة التى تحدثت إلى . كل ما فى وكل ما حولى — بدنى وغير بدنى — ثمرة لمعرفةهم بالحياة . وهذه الأداة الفكرية نفسها التى أتدبر بها هذه الحياة وأحكم عليها لم تكن من اختراعى بل من اختراعهم . ولقد وُلدت ونشأت وتعلّمت بفضلهم . استخرجوا الحديد من باطن الأرض ، وعلمونا قطع الغابات ، واستأنسوا البقر والخيل ، وعلمونا أن نزرع الحبوب ، وأن نعيش مجتمعين ، ونظموا حياتنا ، وعلموني أن أفكر وأن أتكلّم . وهانذا — وأنا من إنتاجهم — وقد أمدوني بالطعام والشراب ، وعلموني — وأنا أفكر بأفكارهم وألفاظهم — أجادل فى أنهم عبث باطل ! قلت لنفسى « هناك نوع من الخطأ ، ولقد ارتكبت خطأ كبيراً بصورة ما » . ثم انقضى وقت طويل قبل أن أستطيع الكشف عن موضع الخطأ .

— ٨ —

كل هذه الشكوك التى أستطيع الآن أن أعبر عنها بشيء من الدقة لم أستطع فى ذلك الحين أن أعبر عنها . كنت حينئذ أحس أن النتائج التى وصلت إليها فيما يتعلق بعيب الحياة مهما تكن حتمية بحكم المنطق — ومهما كان تأييد كبار المفكرين لها — لا تخلو من بعض الخطأ . وسواء كان هذا الخطأ فى التفكير نفسه أو فى صياغة السؤال ، فإنى لم أعرف ذلك على وجه الدقة — إنما أحسست أن النتيجة كانت مقنعة من الناحية العقلية ، ولكن ذلك لم يكن كافياً . وهذه النتائج كلها لم تقنعنى إلى الحد الذى يجعلنى أعمل بناء على ما يترتب على تفكيرى — أعنى أن أقتل نفسى . ولو أنى قلت إن العقل أدى بى إلى النقطة التى وصلت إليها لكنت — إذا لم أنتحر — من الكاذبين . كان العقل يعمل ، ولكن شيئاً آخر كذلك كان يعمل ، شيئاً أستطيع أن أسميه الإحساس بالحياة . كانت هناك قوة تعمل وترغمنى على توجيه انتباهى إلى هذا الشيء دون ذاك . تلك هى القوة التى أنقذتنى من موقفى اليأس وحولت ذهنى إلى اتجاه آخر . هذه القوة أرغمتنى على أن أوجه انتباهى إلى أنى ، ومعى بضع مئات من أمثالى ، لا نكون المجموعة البشرية كلها ، ونبهتنى كذلك إلى أنى لم أعرف بعد حياة البشر .

والتفتُ إلى الدائرة الضيقة من زملائى فلم أر غير قوم لم يفهموا المشكلة ، أو قوم فهموها ولكنهم أغرقوها فى نشوة الحياة ، أو فهموها وقضوا على حياتهم ، أو فهموها ولكنهم

— لضعفهم — كانوا يحيون حياتهم يأسين . ولم أر غير هؤلاء . وبدأ لى كأن تلك الدائرة الضيقة من الأغنياء المتعلمين ذوى الفراغ التى أنتهى إليها تكون الإنسانية بأسرها ، وكأن تلك الملايين العديدة التى عاشت وما تزال تعيش ليست سوى ماشية من نوع ما — وليسوا أناسا حقيقيين .

ويبدو لى الآن أن من أعجب العجب ومن الأمور التى لا تفهم ولا تصدق أن أستطيع — وأنا أناقش مسألة الحياة بالعقل — أن أغض الطرف عن حياة الإنسانية كلها التى تحيط بى من كل جانب ، وأن أزلّ إلى هذا الحد البعيد وإلى هذه الدرجة القصوى من السخف حتى أحسب حياتى ، وحياة سليمان وشو بنهور ، هى الحياة الحقّة ، وهى الحياة الطبيعية ، وحياة الملايين حدث لا يستحق الالتفات . هكذا كان موقفى ، برغم أنه يبدو لى اليوم جد عجيب . وصوّر لى وهم اعترازى بقدرتى العقلية أنه مما لا شك فيه أنى — وسليمان وشو بنهور — عرضنا المسألة بصدق ودقة لا تجعل رأيا غير رأينا جائز الصواب . ولم أشك لحظة فى نظرتى إلى الموضوع ، حتى إن تلك الملايين كانت تتألف — فى عيني — من رجال لم يبلغوا بعد أن يدركوا كل ما فى الموضوع من عمق ، وحتى بحثت عن معنى حياتى دون أن يطرأ لى مرة أن أسأل : « ما المعنى الذى أضفته على الحياة تلك الجموع من عامة الناس التى عاشت وما تزال تعيش على وجه الأرض ؟ »

عشت طويلا فى هذه الحال الجنونية — وهى حال فى الواقع (إن لم يكن باللفظ) تتميز بها خاصة نحن معشر الأحرار المتعلمين . وبفضل حبي الطبيعى العجيب للعمال الحقيقيين ، ذلك الحب الذى أرغنى على أن أفهمهم وعلى أن أدرك أنهم ليسوا أغنياء كما حسبناهم ، أو بفضل إخلاصى فى العقيدة بأنى لا يمكن أن أعرف شيئا أكثر من أن خير ما أفعله هو أن أشتق نفسى . بهذا الفضل أو بذاك أحسست بالغريزة أنى إن أردت أن أعيش وأن أفهم معنى الحياة فلا بد لى أن أبحث عن هذا المعنى لا عند أولئك الذين فقدوه ويحبون أن يقتلوا أنفسهم ، بل عند أولئك الملايين الذين عاشوا فى الماضى وما يزالون يعيشون فى الحاضر ، أولئك الذين يخلقون الحياة ويتحملون أعباء حياتهم وحياتنا كذلك . فتأملت فى تلك الجموع العديدة من الناس السذج الجهلاء الفقراء الذين عاشوا ولا زالوا يعيشون ، ورأيت

شيئاً يختلف كل الاختلاف . رأيت أن كل تلك الملايين — مع الاستثناء النادر — الذين عاشوا وما زالوا يعيشون ، لا ينخرطون في أقسامي ، وإني لا أستطيع أن أصممهم بجهل المشكلة ، لأنهم يعرضونها بأنفسهم ، ويحيبون عنها بوضوح يدعو إلى العجب . ولم أستطع كذلك أن أحسبهم ايقوريين ، لأن حياتهم تتألف من الحرمان والألم أكثر مما تتألف من أسباب المتع . ولا أستطيع البتة أن أعتقد أنهم يتخبطون بغير عقل في حياة لا معنى لها ، لأنهم يفسرون كل عمل من أعمال حياتهم ، بل ويفسرون الموت نفسه . وهم يعدون قتل النفس أعظم الشرور خطراً . وبدأ لي كأن الناس أجمعين لهم بمعنى الحياة دراية لا أقرها بل وأزدريها . ويدألي كذلك أن المعرفة العقلية لا تمدني بمعنى الحياة ، بل ولا تشملها : في حين أن المعنى الذي تكسبه الحياة لملايين البشر — بل الإنسانية بأسرها — يقوم على أساس من المعرفة زائف محتقر .

إن المعرفة العقلية — كما يعرضها العلماء والحكماء — تنكسر معنى الحياة ، في حين أن الجماهير العديدة من الناس — بل الإنسانية بأسرها — تتلقى هذا المعنى في المعرفة التي لا تمت إلى العقل بصلة . وهذه المعرفة التي لا تستند إلى العقل هي الإيمان — وهي ذلك الشيء الذي لم يسعني إلا أن أنبذه . تلك المعرفة هي الله — الثالث ، وخلق الدنيا في ستة أيام ، والملائكة والشياطين ، وما إلى ذلك ، مما لا أستطيع أن أقبله ما دمت محتفظاً بعقلي . كان إذن موقفى مريعاً . فقد عرفت أنني لا أستطيع أن أجده شيئاً في طريق المعرفة العقلية غير إنكار الحياة . وهناك — في الإيمان — لا شيء غير إنكار العقل ، وهو عندي أشد استحالة من إنكار الحياة . لقد دلت المعرفة العقلية على أن الحياة شر ، وعرف الناس ذلك — فكان عليهم أن يتخلوا عن الحياة ، ولكنهم عاشوا ولا زالوا يعيشون ، ولكنني كذلك أعيش ، رغم أنني عرفت من زمان بعيد أن الحياة خلو من المعنى وأنها شر مستطير . وأظهر لي الإيمان أنني لكي أفهم معنى الحياة لا بد لي أن أطرح العقل جانبا — والعقل هو الشيء نفسه الذي يتطلب وحده إدراك ما في الحياة من معنى .

وهنا ينشأ التناقض ، ولم أجده سوى مخرجين . إما أن يكون ذلك الذي سميت العقل

غير معقول — كما ظننت — أو أن يكون ذلك الذى حسبته غير معقول معقولاً — ولو إلى حد — وليس كما ظننت . وبدأت أحقق الحجاج التى كنت أؤيد بها معرفتى العقلية .

وحققت الحجاج التى تؤيد المعرفة العقلية فالفيتها صحيحة جداً . ولم أجد مناصاً من النتيجة التى وصلت إليها وهى أن الحياة لا شىء ، ولكنى لمست موضعاً من مواضع الخطأ ، وذلك أن تفكيرى لم يكن متفقاً مع السؤال الذى قدمته . كان سؤالى « لماذا أعيش ، أى ما النتيجة الحقيقية الثابتة التى تنجم عن حياتى الوهمية الزائلة — ما معنى وجودى المحدود فى هذا العالم غير المحدود ؟ » ولكنى أجيب عن هذا السؤال درست الحياة .

وجلى أن حل جميع مشكلات الحياة الممكنة لا يمكن أن يقنعنى . لأن سؤالى — برغم أنه بدا بسيطاً فى أول الأمر — كان يتطلب ضمناً تفسير المحدود فى حدود الالمحدود .

سألت نفسى : « ما معنى حياتى فيما وراء الزمان والمكان والسبب ؟ » — وأجبت عن هذا السؤال : « ما معنى حياتى فى حدود الزمان والمكان والسبب ؟ » فكانت النتيجة أنى أجبت — بعد جهد كبير من الفكر « لا شىء » .

وكنت فى تفكيرى دائماً أوازن (ولم أستطع غير ذلك) بين المحدود والمحدود ، أو بين الالمحدود والمالمحدود . ولكنى من أجل هذا السبب بلغت النتيجة التى لا مناص منها : وهى أن القوة هى القوة ، والمادة هى المادة ؛ والإرادة هى الإرادة ، والالمحدود هو الالمحدود ، والعدم هو العدم — وذلك كل ما أمكن أن أصل إليه .

فكان هذا شديها بما يحدث فى علوم الرياضة ، حينما يفكر المرء فى حل معادلة فيجد أنه يصل إلى التطابق . سلسلة التفكير سليمة ، ولكنها تنتهى إلى أن $1 = 1$ أو $س = س$ أو $ص = ص$. وحدث لى نفس الشىء فى تفكيرى فيما يتعلق بمسألة معنى الحياة . فإن الإجابات التى قدمتها العلوم جميعاً لهذا السؤال انتهت كلها بالتطابق .

وفى الحقيقة أن المعرفة العلمية البحتة — تلك المعرفة التى تبدأ كما بدأ ديكارت ، بالشك المطلق فى كل شىء — تنبذ كل معرفة تقوم على أساس الإيمان ، وتبنى كل شىء من جديد على أساس قوانين الفكر والتجربة ، ولا تستطيع أن تجيب عن مشكلة الحياة إلا بما حصلت عليه : وهو جواب غير محدود . ولم يبدُ لى إلا أول الأمر فقط أن المعرفة تقدم لنا جواباً

قاطعا — هو جواب شو بنهور : إن الحياة خلو من المعنى وإنها شر . ولكنى عندما أنعمت النظر فى الموضوع أدركت أن هذا الجواب لم يكن حاسما ، وإنما هو شعورى الذى حسبه كذلك . أما إن عبرنا عن الجواب تعبيرا صحيحا ، كما فعل البراهميون وسليمان وشو بنهور ، فهو لا شك غير محدود ، أو هو متطابق مع السؤال (س = س والحياة عدم) . ولذا فالمعرفة الفلسفية لا تنكر شيئا ، ولكنها تجيب بأنها لا تستطيع أن تجد للسؤال حلا — وأن الحل عندها لا يفتأ غير محدود .

ولما أدركت هذا أدركت أنه يستحيل على المرء أن يبحث فى المعرفة العقلية عن جواب لسؤالى ، كما أدركت أن الجواب الذى تقدمه المعرفة العقلية إن هو إلا إشارة إلى أن المرء لا يستطيع أن يظفر بجواب إلا إذا وضع السؤال فى صيغة أخرى ، ولا بد أن يتضمن السؤال العلاقة بين المحدود واللا محدود . وفهمت أن الإجابات التى يقدمها لنا الإيمان — مهما تكن ملتوية بعيدة عن العقل — لها ميزة كبرى ، وهى أنها تدخل فى كل جواب علاقة بين المحدود واللا محدود ، وهى العلاقة التى لا يمكن أن يكون لنا غيرها حل .

ومهما تكن الصيغة التى وضعت فيها سؤالى فإن هذه العلاقة كانت دائما تظهر فى الجواب . كيف لى أن أعيش ؟ — وفقا لنا موس الإله . ما النتيجة الحقيقية التى تنجم عن حياتى ؟ — العذاب الأبدى أو النعيم الأبدى . ما معنى الحياة الذى لا يقضى عليه الموت ؟ — الاتحاد مع الله الدائم : السماء .

ولذا فإلى جانب المعرفة العقلية التى بدت لى كأنها المعرفة الوحيدة ، اضطرت إلى الاعتراف بأن الإنسانية الحية كلها لها نوع من المعرفة غير المعقولة — تلك هى الإيمان الذى يجعل الحياة ممكنة . وقد بقى الإيمان فى عيى غير معقول كما كان من قبل ، غير أنى لم يسعنى إلا أن أقر بأنه يقدم للإنسانية جوابا عن مشكلة الحياة ، وأنه — لذلك — يجعل الحياة ممكنة . إن المعرفة التى تنطبق على العقل قد انتهت بى إلى الاعتراف بأن الحياة لا معنى لها — وقد وقفت حياتى عن المضى فى المسير وأردت أن أقضى عليها . ولما تطلعت حولى إلى الإنسانية كلها رأيت أن الناس يعيشون ويعلنون صراحة أنهم يعرفون للحياة معناها . ثم نظرت إلى نفسى فرأيت أنى كنت أعيش عند ما كنت أعرف للحياة معنى . فإن الإيمان كان قد

أَكسب الحياة عندى معنى كما أكسبها عند غيرى ، وجعل الحياة ممكنة .

ثم نظرت كذلك إلى أهل البدان الأخرى ، وإلى معاصرى ، وإلى سابقهم ، فرأيت نفس الشيء . رأيت أنه — مذبذبا الإنسان — إذا كانت هناك حياة فإن الإيمان هو الذى جعلها ممكنة ، وأن المبادئ الأساسية للإيمان واحدة فى كل زمان ومكان .

ومهما يكن ذلك الإيمان ، ومهما تكن الإجابات التى يقدمها ، وأيا كان الإنسان الذى تُقدم له الإجابات ، فإن هذه الإجابات جميعا تكسب حياة الإنسان المحدودة معنى غير محدود ، معنى لا تهدمه الآلام والحرمان والموت . ومعنى ذلك أننا فى الإيمان وحده نستطيع أن نجد للحياة معنى أو أن نجدها ممكنة . فما هو هذا الإيمان إذن ؟ لقد فهمت أن الإيمان ليس مجرد « اتضاح الخفى » أو ما يشبه ذلك ، وليس إلهاما (إنما ذلك يحدد جانباً واحداً من جوانب الإيمان) ، وليس هو العلاقة بين الإنسان والله (إذ أن المرء عليه أولاً أن يحدد الإيمان ، ثم يحدد بعد ذلك الله ، ولا يحدد الإيمان عن طريق الله) . ليس الإيمان هو الموافقة على ما قيل لنا من قبل (كما يُفرض فيه فى أكثر الأحيان) . إنما الإيمان هو معرفة معنى الحياة الإنسانية ، الذى يترتب عليه أن يُبقى الإنسان على حياته ولا يقضى عليها . الإيمان قوة الحياة . وما دام الإنسان حيا فلا بد له أن يمتنع عقيدة من العقائد . فإذا لم يعتقد المرء أنه لا بد أن يعيش من أجل شيء ما ، مابقى على وجه الأرض . وإذا لم ير ويدرك الطبيعة الوهمية للعالم المحدود ، فإنه يعتقد فى هذه الطبيعة الوهمية أما إذا أدركها فلا بد له أن يعتقد فى اللامحدود . إنه لا يستطيع العيش بغير إيمان .

واستعرضت كل ما بذلت من جهد عقلى فأصابنى الرعب والفرع . فقد اتضح لى الآن أن المرء لى يستطيع الحياة لا بد له إما أن يغفل رؤية اللانهاى ، أو أن يفسر الحياة تفسيراً يربط المحدود باللامحدود . وقد كان لى من قبل هذا التفسير ؛ ولكنى طالما اعتقدت فى المحدود لم أكن بحاجة إلى هذا التفسير ، وبدأت أحققه بالعقل . وفى ضوء العقل تبدد تفسيرى السابق كله . ثم جاء الوقت الذى كففت فيه عن الاعتقاد فى المحدود . وبدأت بعدئذ أشيد على أسس عقلية — مما لدى من معارف — تفسيراً يكسب الحياة معنى ، غير أنى لم أستطع أن أشيد شيئاً ما . فإنى — وخير أصحاب العقول البشرية — وصلنا إلى هذه

النتيجة : وهى أن $S = S$ ، ودهشنا لهذه النتيجة ، برغم أنه لم يكن بالإمكان أن ينجم غيرها .

ماذا كنت أفعل عند ما كنت أبحث عن الجواب فى العلوم التجريبية ؟ كنت أحب أن أعرف لماذا أعيش ، ولهذا الغرض درست كل ما هو خارج عن نفسى . وبدهى أنى قد أعرف الكثير ، ولكنى لن أعرف شيئاً مما أردت معرفته .

ثم ماذا كنت أفعل عند ما كنت أبحث عن الجواب فى المعرفة الفلسفية ؟ كنت أدرس آراء أولئك الذين ألّفوا أنفسهم فى مثل موضوعى ، يعوزهم الجواب عن هذا السؤال : « لماذا أعيش ؟ » وبدهى أنى لم أكن لأعلم شيئاً غير الذى علمت من نفسى — وذلك أنه لا يمكن معرفة شىء ما .

من أنا ؟ — جزء من اللانهاى . فى هذه الكلمات القليلة تنحصر المشكلة بأسرها . أمن الجائز أن الإنسانية لم تضع هذا السؤال لنفسها إلا منذ الأمس فقط ؟ وهل لم يستطع أحد قبلى أن يضعه لنفسه — وهو سؤال جد بسيط ، يقفز إلى لسان كل طفل عاقل ؟ لاشك أن هذا السؤال قد وجد منذ نشأ الإنسان ، ومن الطبيعى لحل هذا السؤال منذ ظهر الإنسان ألا يكفى أن نقارن المحدود بالمحدود أو غير المحدود بغير المحدود . ومنذ بدأ الإنسان على وجه البسيطة أخذ يبحث عن العلاقة بين المحدود واللامحدود وحاول أن يعبر عنها .

ونحن نخضع للبحث المنطقي كل الآراء التى تتعلق بالصلة بين المحدود واللامحدود ، أو بإيجاد معنى الحياة — وأقصد فكرة « الله » أو الإرادة أو الخير . وكل هذه الآراء لا تستطيع أن تقف فى وجه النقد العقلى .

ومما يفرغ له المرء ، بل مما يسخر منه ، أننا — كالأطفال — نفكك الساعة أجزاء ، فخورين راضين عن أنفسنا ، ثم نستخرج الزنبرك ، ونجعل من الساعة لعبة ، وندهش بعدئذ لأن الساعة لا تسير .

من الضرورى ومما له قيمة كبرى أن نوفق إلى حل للتناقض القائم بين المحدود واللامحدود ، وأن نوفق إلى جواب لمسألة الحياة حتى تبيت الحياة ممكنة . وذلك هو الحل

الوحيد الذى نلقاه فى كل مكان وكل زمان ، وبين جميع البشر : وهو حل يتحدر من الأزمنة التى تتوارى عن أبصارنا فيها حياة الإنسان ، حل بلغ من العسر أننا لا نستطيع أن نؤلف ما يشبهه — ونحن نهدم هذا الحل مستخفين لى نضع السؤال عينه مرة أخرى ، وهو السؤال الطبيعى لكل امرئ ، والذى ليس لدينا له جواب .

إن فكرة الإله الذى ليس له نهاية ، و قدسية الروح ، والعلاقة بين الله وشئون البشر ، ووحدة الروح ووجودها ، وفكرة الإنسان عن الخير والشر فى الأخلاق — كلها أفكار صيغت فى الضمير البشرى الخفى الذى ليس له نهاية ، وهى تلك الأفكار التى لا يمكن لى ولا للحياة بغيرها البقاء . ومع ذلك فقد نبذت جهد الإنسانية كلها بأسره وأردت أن أصوغها بنفسى وبأسلوبى الخاص من جديد .

إننى لم أفكر على هذا النمط فى ذلك الحين ، ولكن جرائم هذه الأفكار بدأت تدب فى نفسى . لقد أدركت فى أول الأمر أن موقفى وموقف شو بنهور وسليمان — برغم ما لدينا من حكمة — سخيى غير مستساغ : أننا نرى الحياة شراً ، ومع ذلك نواصل الحياة . وجلى أن هذا أمر شاذ . لأن الحياة إن كانت غير معقولة ، وإن كنت مغرماً بأحكام العقل ، إذن فلا بد من هدم الحياة ، وإذن فلن يكون هناك من يتحداها . ثم إنى أدركت أن كل ما تقدم من تعليل عقلى يدور فى حلقة مفرغة ، كالعجلة تنفك عن الترس . ومهما ناقشنا وأجدنا النقاش فإننا لا نستطيع أن ننظر بجواب للسؤال ، غير أن س = س دائماً ، ولذا فالأرجح أن أسسك حريقاً خاطئاً . ثم بدأت كذلك أدرك أن الأجوبة التى يقدمها الإيمان تحتوى على أعق حكمة إنسانية ، وأنى لا أملك حق إنكارها بحجة العقل ، وأن تلك الأجوبة هى وحدها التى تجيب عن مشكلة الحياة .

أدركت ذلك ، غير أن إدراكى له لم يصلح لى الأمور . كنت الآن على استعداد لقبول أى ضرب من ضروب الإيمان ، إذا لم يتطلب منى ذلك إنكاراً مباشراً للعقل — وإلا كان مغالطة من المغالطات . فدرست البوذية والإسلام من الكتب ، ودرست أكثر من ذلك المسيحية من الكتب ومن حولى من الناس .

وكان من الطبيعي أن ألتفت أول الأمر إلى العقائد الثابتة التي تسود أبناء طبقتي ، وأن ألتفت إلى العلماء : وهم علماء الكنيسة والرهبان ، والمحدثين من علماء الدين ، بل وإلى الإنجيليين الذين يعترفون بالخلاص عن طريق العقيدة في الفداء . وتشبثت بأهداب أصحاب هذه العقيدة وأخذت أسألم عن عقائدهم وفهمهم لمعنى الحياة .

ومع أنى تهاونت كثيراً ، وتجنبت كل ما يدعو إلى النزاع ، فإنى لم أستطع أن أقبل عقيدة هؤلاء الناس . فقد رأيت أن ما يزعمون أنه عقيدتهم لا يوضح معنى الحياة بل يزيده غموضاً ، وأنهم هم أنفسهم يؤكدون عقيدتهم لا ليحييوا عن تلك المشكلة الحيوية التي أدت بي إلى الإيمان ، ولكن لأغراض أخرى غريبة عنى .

وإنى لأذكر الشعور الأليم بالخوف من أن أعود إلى حالتى السابقة من اليأس — بعد ذلك الأمل الذى كان يعاودنى — كلما اتصلت بهؤلاء الناس .

كلما زادونى إيضاحاً عن عقائدهم ، اتضحت لى أخطاؤهم وأدركت أن أملى فى أن أجد فى عقيدتهم تفسيراً لمعنى الحياة أمل واه لا رجاء فيه .

لم ينفّرنى منهم أنهم فى عقائدهم يمزجون كثيراً مما ليس ضرورياً أو معقولاً بحقائق المسيحية التي كانت دائماً تحت يدي . إنما نفّرنى منهم أن حياتهم كانت كحياتى مع هذا الفارق الوحيد — أن مثل هذه الحياة لم تتفق والمبادئ التي يثبونها فى تعاليمهم . وأحسست بجلاء أنهم يخدعون أنفسهم ، وأنهم — مثلى — لم يجدوا للحياة معنى غير أن يحيوا ما دامت الحياة مستولين على كل ما تمتد إليه أيديهم . رأيت ذلك لأنهم لو وجدوا معنى يهدم الخوف من الخسارة ومن الألم والموت لما خشوا هذه الأشياء . ولكنهم — أقصد أولئك الذين يعتقدون فى الدين من دائرتنا — كانوا مثلى يعيشون فى كفاية ووفرة ويحاولون أن يحتفظوا بما لديهم أو أن يضاعفوه ، يخشون الحرمان والألم والموت . وهم كذلك — مثلى ومثل كل من لا يعتقدون فى الدين — كانوا يعيشون لإشباع رغباتهم ، ويحيون حياة سيئة ، إن لم تكن أسوأ من الحياة التي يحياها الكافرون .

ولم تنهض حجة واحدة بإقناعى بصدق إيمانهم . وما كنت لأقتنع إلا بعمل يدل على أنهم يرون فى الحياة معنى لا يجعلهم يجزعون مما كنت أجزع أنا منه — الفقر والمرض

والموت . ولكنى لم ألس مثل هذا العمل بين مختلف المتظاهرين بالدين من أبناء طائفتى . بل على العكس من ذلك كنت أرى أشد الناس كفراً من أبناء طبقتى يقومون بهذا العمل^(١) ، ولم أرقط أحداً من المتظاهرين بالدين يقوم به .

فأدركت أن عقيدة هؤلاء الناس لم تكن ذلك الإيمان الذى كنت أبحث عنه ، وأن إيمانهم ليس بالإيمان الصادق ولكنه عزاء أبيقورى فى الحياة .

وأدركت أن تلك العقيدة قد تنفع كسلوى أو على الأقل كموضوع ينصرف إليه ذهن رجل كسليمان يعرض بنان الندم وهو على فراش الموت ، ولكنها لا تنفع الكثرة الكثيرة من بنى الإنسان الذين لا يطلب إليهم أن يلهوا وهم يستهلكون إنتاج غيرهم ، وإنما يطلب إليهم أن يخلقوا الحياة نفسها .

ولكى تستطيع الإنسانية جمعاء أن تعيش ، وأن تواصل العيش وهى تنسب إلى الحياة معنى من المعانى ، لا بد لهذه الملايين من عقيدة غير هذه ، ولا بد لهم من معرفتها معرفة صحيحة . حقاً أنى لم أقتنع بوجود العقيدة لأننى أنا وسليمان وشوبنهاور لم نقتل أنفسنا ، بل اقتنعت بوجودها لأن تلك الملايين من البشر قد عاشت وما تزال تعيش ، وقد حملت سليمان كما حملتنا فوق تيار حياتهم .

وبدأت أقرب من المؤمنين من الفقراء السذج الأميين : الحجاج والرهبان والطائفيين والفلاحين . إن عقيدة هؤلاء العامة هى نفسها العقيدة المسيحية التى يعلنها أشباه المؤمنين من دائرتنا . فقد وجدت لديهم كذلك قدراً كبيراً من الخرافة ممزوجة بحقائق المسيحية . غير أن الفارق بينهم وبيننا هو أن الخرافة للمؤمنين منا كانت نافلة ليس لها ضرورة ولم تكن متفكة والحياة التى نحيهاها ، فهى عندنا ضرب من ضروب اللهو الأبيقورى وحسب . فى حين أن خرافة المؤمنين من جموع العمال كانت تتفق كل الانفاق وحياتهم حتى إنه ليستحيل أن نتصورهم بغير تلك الخرافة ، فهى شرط لازم لحياتهم . إن حياة المؤمنين من طبقتي كلها

(١) هنا إشارة إلى الحركة الثائرة التى كانت تسود فى ذلك الحين ، وشعارها « عودوا إلى الشعب » ، تلك الحركة التى كانت تخاطر ويضحى فيها بالبيت والميلك بل وبالحياة نفسها نقر غير قليل من الشبان والشباب ، مدفوعين بعوامل شبيهة جداً بما كان يعتقد فيه تولستوى فى ذلك الحين من أن الطبقات العليا من المجتمع طفيلية تعيش على أود الناس الذين يعولونهم .

تناقض عقيدتهم ، في حين أن حياة العمال كلها تأييد لمعنى الحياة الذى أمدتهم به عقيدتهم . فشرعت أنعم النظر في حياة هؤلاء الناس وفي عقيدتهم . وكلما أنعمت النظر زدت اقتناعاً بأنهم صادقون في عقيدتهم ، وأن العقيدة ضرورية لهم ، وهى وحدها تكسب حياتهم معنى ، وتجعل الحياة ممكنة لهم . وعلى نقيض ما شهدت بين أبناء طائفتى — حيث تمكن الحياة بغير إيمان ، وحيث لا تكاد تجد واحداً فى الألف يعترف بأنه مؤمن — رأيت أنك لا تكاد تجد رجلاً واحداً فى الألف بين هؤلاء لا يعتقد فى الدين . وعلى نقيض ما رأيت بين أبناء دائرتى ، حيث تُقضى الحياة كلها فى خمول وهو وسخط ، فإن حياة هؤلاء الناس كلها تُقضى فى العمل الثقيل وهم راضون عن الحياة . وعلى نقيض الطريقة التى يعارض بها أبناء دائرتنا القدر ويشكونه بسبب ما يصيبهم من حرمان وآلام ، فإن هؤلاء الناس يقبلون المرض والأحزان دون ارتباك أو معارضة ، بل يبقين هادىء ثابت بأن كل شئ ينطوى على الخير . وعلى نقيضنا نحن الذين كلما ازدادنا حكمة قل إدراكنا لمعنى الحياة ورأينا فى الألم والموت سخرية وشراً ، يعيش هؤلاء القوم ويتألمون ، ويقبلون الموت والألم بهدوء بل وبسرور فى أكثر الحالات . نحن نحسب أن الموت الهادى الذى لا يحوطه الفزع واليأس نادر جداً بين أفراد الطائفة التى ننتمى إليها ، وهم على نقيض ذلك يرون أن الموت الذى تكتنفه المشاق وثورة النفس والشقاء أمر نادر جداً . وهؤلاء الناس الذين يعوزهم كل ما نراه ويراه سليمان الخير الوحيد فى الحياة — وهم مع ذلك ينعمون بأكثر قسط من السعادة — جمهور كبير . وأنعمت النظر فيما حولى ، وتدبرت حياة أكثر الناس فى الماضى والحاضر . ورأيت أن أمثال هؤلاء الناس الذين يدركون معنى الحياة ويستطيعون أن يحيوا وأن يموتوا ، لا يعدون بالآحاد أو العشرات أو المئات أو الألوف بل يعدون بالملايين . وكلهم — على اختلاف عاداتهم وعقولهم وتعليمهم ومراكزهم اختلافاً كبيراً — متشابهون . وهم يختلفون عنى كل الاختلاف ، فهم يعلمون ما أجهل من معنى الحياة والموت ، ويعملون فى هدوء ، ويتحملون الحرمان والآلام ، ويعيشون ويموتون ، ولا يرون فى ذلك عبثاً بل خيراً ونعمة .

وتعلمت أن أحب هؤلاء الناس . وكلما عرفت حياتهم — حياة الأحياء منهم والأموات ، ومن قرأت عنهم أو سمعت ، ازدادت حباً لهم وازدادت حباتى يسراً . وبقيت على ذلك قرابة العالمين ، ثم اعترانى تغيير كنت أتأهب له من زمان بعيد ، ولم تبرح نفسى قط بذرة التفكير

فيه . وانتهيت إلى أن حياة الفئة التى أنتهى إليها — الأغنياء والعلماء — ليست كريهة
فحسب ، بل فقدت كل ما لها من معنى فى عيني . وتبدت لى كل أعمالنا ومناقشاتنا وعلومنا
وآدابنا تحت ضوء جديد . فهمت أن ذلك كله إن هو إلا غرور بالنفس ، وأنه يستحيل على
المرء أن يجد فيه أى معنى من المعانى . فى حين أن حياة الناس العاملين كلهم — وأقصد
بهم كل من ينتجون الحياة من بنى الإنسان — قد ظهرت لى بمعناها الصحيح . حينئذ
أدركت أن حياتهم هى الحياة نفسها ، وأن المعنى الذى يكسو هذه الحياة معنى صادق :
فتقبلته راضيا .

— ١١ —

ولما تذكرت كيف أن هذه العقائد نفسها كانت تنفّر لى وتبدولى خلوا من المعنى حينما
يُقرَّبها قوم تتعارض حياتهم معها ، وكيف أن هذه العقائد نفسها تجذب لى وتبدولى معقولة
حينما أرى الناس يعيشون وفقا لها ، فهمت لماذا نبذت تلك العقائد فى أول الأمر ووجدتها
عديمة المعنى ، ثم قبلتها الآن وألفيتها مليئة بالمعنى . أدركت أنى كنت مخطئا كما أدركت
سبب الخطأ . لقد أخطأت لا لأنى أسأت التفكير فحسب ، بل لأنى عشت عيشة سيئة ،
وذلك أشد السببين خطرا . أدركت أن الحقيقة لم تخف عنى لأنى أخطأت التفكير بمقدار
ما خفيت عنى بسبب حياتى نفسها التى قضيتها فى ظروف شاذة تلمست فيها إشباع رغباتى
على طريقة أبيقور . أدركت أن سؤالى عن حقيقة حياتى وجوابى على ذلك بأنها شر أمر جد
صحيح . وموضع الخطأ أن الجواب يشير إلى حياتى وحدها ، ولكنى نسبته إلى الحياة بأكملها .
سألت نفسى ما حياتى ، وظفرت بهذا الجواب : شر وعبث . وحقا إن حياتى — وهى حياة
الاستهتار فى الشهوات — كانت شرا وكانت خلوا من المعنى . ولذا فإن هذا الجواب :
« الحياة شر وعبث » كان يشير إلى حياتى فقط ، لا إلى حياة البشر كافة . أدركت هذه
الحقيقة التى وجدتها فيما بعد فى الكتاب المقدس ، وهى « أن الناس يحبون الظلام أكثر مما
يحبون الضوء لأن أعمالهم شريرة . لأن كل من يفعل الشر يكره الضوء ولا يأتى إليه خشية
اللوم على عمله » . ورأيت أنه لى يفهم المرء معنى الحياة لا بد أولا ألا تكون الحياة بغير
معنى وألا تكون شرا ، ثم يُطلب إلى العقل أن يفسرها . وأدركت لماذا حُتْ طويلا حول

حقيقة واضحة كل هذا الوضوح ، وأن الإنسان إذا كان يريد أن يفكر وأن يتكلم في حياة البشر لا بد له أن يفكر وأن يتكلم في تلك الحياة لا في حياة أحد المتطفلين على الحياة . كانت هذه الحقيقة دائماً صادقة كما أن مجموع اثنين واثنين أربعة حقيقة صادقة . ولكني لم أعترف بها من قبل ، لأنني إن اعترفت بأن مجموع اثنين واثنين أربعة فلا بد لي كذلك من الاعتراف بأنني رجل خبيث . وكان إحساسي بأنني رجل طيب أكثر أهمية وضرورة عندي من أن يكون مجموع اثنين واثنين أربعة ولما أحببت الناس وكرهت نفسي واعترفت بالحقيقة اتضح لي كل شيء .

ماذا لو أن جلادا يقضى حياته كلها في تعذيب نفسه وحز رقاب الناس — أو لو أن مدمنا على المحر لا رجاء فيه ، أو مجنوناً ينفق حياته في حجرة مظلمة دنسة ويتصور الموت في تركها — ماذا لو سأل نفسه مثل هذا الرجل « ما الحياة ؟ » لا شك أنه لا يظفر بجواب عن هذا السؤال غير أن الحياة أكبر الشرور . ويكون جواب المجنون جد صحيح — ولكن فيما يختص به وحده . ثم ماذا لو كنت أنا ذلك المجنون ؟ وماذا لو كنا نحن الأغنياء الخالين كهؤلاء المجانين ؟ لقد أدركت أننا حقاً أمثال هؤلاء المجانين . أو على الأقل لقد كنت أنا كذلك بغير شك .

حقاً إن الطائر قد خلق ليطير ويجمع طعامه ويبنى عشه ، فإن رأيت طائراً يفعل ذلك ابتهجت لسروره . والشاة والأرنب والذئب قد خلقت لتطعم نفسها وتتأمل وتطعم صغارها ، فإن فعلت ذلك أيقنت يقيناً ثابتاً أنها سعيدة وأن حياتها حياة معقولة . إذن فما ينبغي للإنسان أن يفعل ؟ إنه كذلك ينبغي له أن ينتج ما يعيش عليه كما يفعل الحيوان ، مع هذا الفارق : وهو أنه يهلك لو قام بذلك منفرداً ، فواجبه أن يحصل على طعامه لا لنفسه فقط ولكن للجماعة كلها . فإن فعل ذلك أيقنت يقيناً لا يتطرق إليه الشك أنه سعيد وأن حياته معقولة . ولكني أسأل نفسي : ماذا فعلت خلال السنوات الثلاثين التي مضت من حياتي التي أحمل تبعثها ؟ إنني لم أنتج لنفسي ما يقيم أودها ، وما كان أبعديني من أن أنتج شيئاً للمجموع . لقد عشت متطفلاً ، وعند ما سألت نفسي : ما فائدة حياتي ؟ أجبتها : لا فائدة منها . فإن كان معنى الحياة الإنسانية ينحصر في عولها فكيف لي إذن — وقد شغلت نفسي ثلاثين عاماً لا في عول الحياة بل في هدمها في نفسي وفي الآخرين — كيف لي أن أحصل على جواب

غير أن حياتي خلو من المعنى وأنها شر؟ ... ولقد كانت فعلا تتصف بخلوها من المعنى كما تتصف بالشر .

إن حياة العالم تسير وفقا لإرادة ما — أقصد أن إرادة ما تحقق غرضها بحياة العالم بأسره وبحياتنا الخاصة . ولكي يأمل المرء أن يدرك معنى تلك الإرادة يجب عليه أولا أن يطيعها بأن يعمل ما يُطلب إلينا . فإذا أنا لم أعمل ما يُطلب إلى فلن أدرك قط المطلوب ، بله أن أدرك المطلوب منا جميعا ومن العالم بأسره .

إذا التقطنا من عرض الطريق متسولا جائعا عارى الجسد ، وأتينا به إلى بناء يتصل بعارة فخمة ، وأمددناه بالطعام والشراب ، ثم أرغنناه على أن يحرك مقبضا إلى أعلى وإلى أسفل ، فإن عليه — من غير شك — قبل أن يناقش في سبب التقاطه وقبل أن يسأل لماذا يتحتم أن يحرك المقبض ، أو إذا كان البناء كله حسن الترتيب ، أن يحرك المقبض . فإذا حركه أدرك أنه يدير مضخة ، وأن المضخة تستنبط الماء ، وأن الماء يروى أحواض الحديقة . ثم يساق من مكان المضخة إلى مكان آخر يجمع فيه الثمر ويدخل السرور على قلب سيده . وبتدرجه من العمل الوضع إلى العمل الرفيع يزداد علما بتنظيم العماره ، وما دام يأخذ منها بنصيب فلن يفكر في السؤال عن سبب وجوده هناك ، ولا شك أنه لن يلتقي على سيده لوما .

وإذن فإن أولئك الذين يطيعون إرادة مولاهم ، أولئك السذج الجهال من العامة ، الذين نحسبهم كالأنعام ، لا يلقون على المولى لوما . أما نحن الحكماء فإننا نأكل طعام المولى ولا نعمل وفقا لإرادته ، وبدلا من أداء العمل ترانا نجلس في حلقة ونناقش متسائلين « لماذا يُحرك ذلك المقبض؟ أليس ذلك سخف! » وهكذا نصل إلى قرار . وهكذا قررنا أن المولى غبي أو أنه غير موجود ، وأنا حكماء ، إلا أننا نحس بأننا عديمو النفع فيجب أن نقضى على أنفسنا بطريقة ما .

وقد ساعدني إدراكي للخطأ في المعرفة العقلية على تحرير نفسي من الانزلاق في سبيل التعليل العقلي متراخيا . وأدى بي الاعتقاد في أن معرفة الحق لا يمكن أن تتحقق إلا بالحياة

نفسها إلى شك في صحة حياتي . ولم ينجنى من هذا الموقف إلا قدرتي على انتزاع نفسي من عزرائي ورؤيتي الحياة الحقيقية للعالم السذج ، وإدراكى أن تلك الحياة وحدها هي الحياة الحقيقية . وفهمت أنى لو أردت أن أدرك الحياة ومعناها ، ينبغى لى ألا أحيأ حياة المتطفل ، بل لا بد لى أن أحيأ حياة حقيقية وأن أتحقق منها — بعدما آتخذ لنفسى المعنى الذى تضيفه الإنسانية الحققة على الحياة وبعد أن أزج بنفسى فى تلك الحياة .

وفى غضون تلك الفترة حدث لى ما يأتى : فى خلال ذلك العام كله حينما كنت أكاد أسأل نفسى فى كل لحظة من اللحظات هل أقضى على نفسى — وتنتهى بذلك المشكلة — شتقا أورميا بالرصاص ، فى خلال تلك الفترة كلها التى ساورتني فيها الأفكار وبدت لى فيها تلك الملاحظات التى تحدثت عنها كان يستولى على قلبى شعور أليم ، لا أستطيع أن أصفه إلا أنه بحث عن الله .

أقول إن ذلك البحث عن الله لم يكن بالعقل إنما كان بالشعور ، لأن هذا البحث لم ينشأ عن تسلسل الأفكار عندى — وإنما نبع من القلب . ولقد كان شعوراً بالخوف واليتم والعزلة فى بلد غريب ، وأملا فى العون من جهة ما .

وبرغم اقتناعى التام باستحالة البرهان على وجود الله (وقد بينتُ كائن أن هذا البرهان مستحيل ، وفهمته تمام الفهم) كنت أبحث عن الله ، وكنت أمل أن أجده ، وتوجهت بالدعاء — مدفوعاً بالمادة القديمة — إلى ذلك الذى أبحث عنه ولم أجده . واستعدت فى ذهنى ما أدلى به كائن وشو بنهور من حجج تدل على استحالة البرهان على وجود الله . وبدأت أحقق هذه الحجج وأنبذها . قلت لنفسى إن « السبب » ليس فى نوعه فكرة كفكرة « الزمان » أو « المكان » . إن كنتُ موجودا ، إذن فلا بد لوجودى من سبب ، ولا بد للأسباب من مسبب . وذلك السبب الأول هو ما يسميه الناس « الله » . ووقفت قليلا عند هذه الفكرة ، وحاولت بكيانى كله أن أعترف بوجود ذلك السبب . وما إن اعترفت بوجود قوة تملكنى فى قبضتها ، حتى أحسست فى الحال أنى أستطيع أن أعيش . غير أنى سألت نفسى : « ما ذلك السبب ، أو تلك القوة ؟ وكيف لى أن أفكر فيها ؟ وما الذى يربطنى بذلك الذى أسميه « الإله ؟ » ولم تطرأ لى سوى الإجابات المألوفة فقلت « هو الخالق

والحافظ « غير أن هذا الجواب لم يقنعني وأحسست أني كنت أفقد في نفسي ما كنت أحتاج إليه في حياتي . وأصابني الذعر وبدأت أصلي لمن كنت أبحث عنه وأدعوه أن يعينني . ولكني كلما ازددت دعاء اتضح لي أنه لم يستمع لدعائي ، وتبين لي أنه ليس هناك من أوجه إليه الدعاء . وامتلاً قلبي باليأس من وجود الله وقلت : « رحماك ربني ! اللهم نجني ! اللهم إني أسألك الهداية ! » ولكن أحداً لم يرحنني وأحسست أن حياتي تشرف على الركود .

ولكني كنت أعود بين الحين والحين من نواح متعددة إلى الاعتراف الأول بأنني لا يمكن أن أكون قد أتيت إلى هذا العالم بغير علة أو سبب أو معنى . لا يمكن أن أكون طائراً مهيبض الجناح سقط من عشه كما أحسست بنفسي . وحتى لو كنت كذلك ، مستلقياً على ظهري أصبح بين العشب الغزير ، لصحت لأنني أعلم أن أمًا حملتني وأخرجتني من البيضة وأدفأنتي وأطعمتني وأحببتني — أين تلك الأم ؟ ولو كنت مهجوراً فمن هجرني ؟ إني لا أستطيع أن أخفي عن نفسي أن شخصاً حملني وأولاني حبه . فمن عسى أن يكون ؟ هل أقول ثانية هو « الله » ؟ إنه يعلم ويرى بحثي ويأسي وكفاحي .

قلت لنفسي « إنه موجود » . واعترفت بذلك لحظة واحدة ، ثم دبّت في نفسي الحياة فجأة وأحسست بإمكان الوجود وبقوته . ولكني عدت بعد الاعتراف بوجود الله إلى البحث عن العلاقة بيني وبينه ؛ ثم عدت إلى تصور ذلك الإله — الخالق في ثلاثة أشخاص ، الذي أرسل ابنه الخالص — ومرة أخرى يذوب ككتلة من الثلج هذا الإله المنفصل عن العالم وعني ، يذوب أمام عيني فلا يبقى شيء ، ويجف ينبوع الحياة في نفسي مرة أخرى ، فيستولي على اليأس وأحس أن ليس لديّ ما أفعله غير أن أنتحر . وأسوأ ما في الأمر أني أحسست أني لا أستطيع الانتحار .

ولم أبلغ هذه الحالة مرة أو مرتين أو ثلاثاً ، بل عشرات المرات ومئاتها : أشعر أولاً بالسرور والحيوية ، ثم باليأس وإدراك استحالة العيش .

أذكر أني مرة في باكورة الربيع كنت وحيداً في الغابة أستمع إلى ما يتردد فيها من صوت . استمعت وفكرت في نفس الموضوع الذي كنت أفكر فيه دائماً خلال تلك السنوات الأخيرة الثلاث . فكنت أبحث عن الله مرة أخرى .

قلت لنفسى: « حسنا ، ليس هناك إله ، ليس هناك من ليس من خيالى بل حقيقة واقعة كحياتى كلها . إنه غير موجود ، وليس هناك من المعجزات ما يثبت وجوده ، لأن المعجزات من نسج خيالى فوق أنها غير معقولة .

ثم سألت نفسى: « من أين لى فكرتى عن الله ، ذلك الذى أبحث عنه » وارتفعت فى نفسى مرة أخرى أمواج الحياة البهيجة عند ما خطر لى هذا السؤال . ودبت الحياة فى كل ماحولى واكتسب معنى ما . غير أن سرورى لم يدم طويلا . واستمر ذهنى فى حركته . قلت لنفسى: « إن فكرة الإله ليست بالإله . إنما الفكرة شىء يحل بنفسى . وفكرة الله شىء أستطيع أن أثبته وأستطيع أن أتجنب إثارته فى نفسى . وليس هذا ما أبحث عنه . إنما أبحث عن ذلك الذى بغيره لا تكون حياة » . وبدأ كل ماحولى وما فى نفسى يموت مرة أخرى . وأردت مرة أخرى أن أقتل نفسى .

ولكنى عدت وحدثت ببصيرتى فى نفسى ، وفيما كان يدور بخلقى ، وتذكرت تلك المئات من المرات التى نضب فيها عندى معين الحياة ثم عادت إلى بعدها الحياة كل مرة . وتذكرت أنى إنما عشت فى تلك الأوقات وحدها التى كنت أعتقد فيها فى وجود الله . وكما كان الأمر من قبل ، هو كذلك اليوم . يكفى أن أدرك وجود الله لكى أعيش . ويكفى أن أنساه أو ألا أعتقد فيه لكى أموت .

ما هذا الإحياء وما ذلك الموت ؟ إننى لا أعيش إذا فقدت العقيدة فى وجود الله . ولولا أننى كنت أعلق بأمل غامض فى وجود الله لقتلت نفسى من زمان بعيد . إننى أحيا — بل وأحيا حقيقةً — حينما أحس به وأبحث عنه فقط . وصاح من داخلى صوت يقول: « عن أى شىء تبحث بعد هذا . هذا هو . إنه ذلك الذى لا يستطيع المرء بدونه أن يعيش . إن معرفة الله والحياة شىء واحد . أو قل الله هو الحياة » .

« عِشْ باحثا عن الله ، وإذن فلن تعيش بدون الله » . وقد أضاء كل ما بنفسى وكل ماحولى أكثر من أى وقت سبق ، ولم يبارخنى الضوء بعد ذلك .

ونجوت من الانتحار . ولا أستطيع أن أقول متى أو كيف تم هذا الانقلاب . وكما أن دافع الحياة فى نفسى قد تلاشى تدريجا وبدرجة غير محسوسة حتى استحالت على الحياة

وأردت إنهاؤها بالانتحار ، فكذلك عاد إلى هذا الدافع إلى الحياة تدريجاً وبدرجة غير محسوسة . ومن العجيب أن قوة الحياة التي عادت إلى لم تكن مستحدثة — بل قديمة جدا — وهي تلك القوة عينها التي سيرتني في با كورة حياتي .

وعدت تماماً إلى الحالة التي كنت عليها في صباى الباكر وفي شبابي . عدت إلى العقيدة في تلك (الارادة) التي أوجدتني والتي تتطلب مني شيئاً ما . عدت إلى الاعتقاد في أن الهدف الرئيسى الوحيد لحياتى هو إصلاح نفسى — أى أن أعيش وفقاً لتلك (الارادة) . وعدت إلى الاعتقاد في أنى أستطيع أن أجسد التعبير عن تلك الارادة فيما أنتجته الانسانية لارشادها — وهو ما خفى على في الماضى البعيد : أى أنى عدت إلى الاعتقاد في الله ، وفي الكمال الخلقى ، وفي التقاليد التي تحمل معنى الحياة . ولم يكن هناك سوى فارق واحد ، وهو أننى كنت فيما مضى أقبل كل ذلك بغير وعى منى ، في حين أنى الآن أعلم أنى بدونه لا أستطيع أن أعيش .

إن ما حدث لى شبيه بما يأتى : لكأننى وضعت في زورق (ولا أدري متى كان ذلك) دُفع بى من ساحل مجهول ، ثم أطلعت على اتجاه الساحل المقابل . وبين يدي مجاديف لم أمرن على استعمالها وقد تركت وحدى . فجذفت جهد استطاعتى وانطلقت إلى الأمام ، ولكنى كلما تقدمت نحو منتصف النهر زادت سرعة التيار وحملنى بعيداً عن مرمى ، وقابلت كثيراً من أمثالى حملهم كذلك التيار . وقل من المجدفين من واصل التجديف ، ومنهم من طرح عنه المجاديف كلية . ومن الزوارق ما كان ضخماً يحمل ركاباً عديدين ، ومن الناس من كان يكافح في وجه التيار ، ومنهم من استسلم له . وكلما شططت في المسير ورأيت تقدم أولئك الذين كانوا على سطح الماء في اتجاه التيار ، نسيت الاتجاه الذى وجهته . وفي وسط التيار تماماً بين زحام الزوارق والأفلاك التي كان يدفعها التيار ضللت وجهتى تماماً وألقيت مجاديفى . وحولى من كل جانب كان الناس ذوو الأشرعة والمجاديف مدفوعين مع التيار ، وكلهم يؤكد لى ولغيرى — وهم مرحون مبتهجون — أنه ليس فى الامكان أى اتجاه آخر . وصدقهم وطفوت معهم على متن التيار . وبعد بى الزورق حتى سمعت هدير الجنادل التي لا مناص لى من أن أتخطم على صخورها ، ورأيت بعض الزوارق التي تحطمت

عليها من قبل . فاستجمعت قواى العقلية ولكنى لبثت طويلا لا أستطيع أن أدرك ما حدث لى . ولم أرامى غير الهلاك الذى كنت أندفع إليه والذى كنت أخشاه . ولم أجد لى مقظا للخلاص ، ولم أدر ما أفعل . ولكنى صوبت بصرى إلى وراء فوقعت عينائى على عدد لا يحصى من الزوارق التى تنطلق عبر النهر بقوة و بغير انقطاع ، وتذكرت الساحل والمجاديف ووجهتى ، وشرعت أتقهقر صوب الساحل ضد التيار .

ذلك الساحل هو الله . وتلك الوجهة هى التقاليد ، والمجاديف هى الحرية التى أعطيت لى لى أسير نحو الساحل وأتحد مع الله . وهكذا تجددت عندى قوة الحياة ، وبدأت أحياء من جديد .

انصرفت عن الحياة التى يحياها قرنائى ، وأقررت أن العيشة التى نعيشها ليست هى الحياة ، إنما هى شبه حياة . وأقررت أن الوفرة التى ننعم فى ظلها تحرمنا من فهم الحياة ، وأنى إن أردت أن أفهم الحياة ينبغى لى ألا أفهم تلك الحياة الشاذة التى كنا نحياها نحن المتطفلين على الحياة ، وإنما تلك الحياة تحياها الجموع العاملة الساذجة (أولئك الذين يخلقون الحياة) وذلك المعنى الذى يصفونه عليها . وجموع الناس السذج العاملين الذين كانوا حولهم الروس ، فالتفت إليهم وإلى معنى الحياة عندهم . وهذا المعنى — إذا استطعنا أن نعبر عنه بالكلمات — هو أن كل إنسان قد أتى إلى هذه الدنيا بإرادة الله . وقد ركب الله الإنسان على صورة يستطيع معها إما أن يقضى على روحه أو أن ينجيها . وهدف الإنسان من الحياة هو أن ينجى روحه ، ولكى ينجيها لا بد له أن يعيش عيشة ترضى الله . ولكى يفعل ذلك ينبغى له أن ينبذ كل ملاذ الحياة ، وأن يعمل ، ويتواضع ، ويكابد المشاق ، وأن يكون رحيما . وهذا المعنى يستخرجه الناس من تعاليم الدين التى تنحدر إليهم عن طريق رعاته وعن طريق التقاليد الشائعة بين الناس . وقد اتضح لى هذا المعنى وحل بقلبى . ولكن إلى جانب هذا المعنى الذى آمننت به الجماهير التى لا تنتمى إلى طائفة دينية بعينها والتى كنت أعيش بينها ، كان هناك شىء كثير شديد الالتصاق به نفرت منه ولم أستطع تفسيره ، كالطقوس الدينية والصلوات الكنسية والصوم وعبادة الآمار القديمة وصور القديسين . ولا يستطيع الناس أن

يفصلوا ذلك المعنى من هذه الأشياء ، ولم أستطع أنا كذلك أن أفعل هذا . ومهما تكن هذه الأشياء التي تغلفت في عقائد الناس عجيبه في نظري ، فقد قبلتها كلها . فأديت الصلاة وركعت خشوعا في الصباح والمساء وصمت وتأهبت للقاء القربان المقدس . ولم يعترض عقلي في أول الأمر على شيء من هذا . والأشياء التي كانت فيما سبق تبدو لي مستحيلة لم تبعث في الآن هي عينها أي اعتراض .

إن صلاتي بالإيمان كانت في آخر الأمر شديدة الاختلاف عن صلاتي به في أول الأمر . كانت الحياة نفسها فيما سبق تبدو لي مليئة بالمعنى ، وكان الإيمان يتبدى كأنه قواعد مفروضة على الناس اعتباطا وهي عندي لا ضرورة لها ، ولا تنطبق على العقل بل وعديمة الصلة بالحياة . ثم سألت نفسي : ما معنى تلك القواعد ؟ ولما اقتنعت بأنها تخلو من المعنى نبذتها . أما الآن فعلى نقيض ذلك عرفت تمام المعرفة أن حياتي بغير ذلك ليس لها معنى ولا يمكن أن يكون لها معنى . ولم تبد لي قواعد الإيمان البتة غير ضرورية — بل على العكس من ذلك أدت بي الخبرة التي لا شك فيها إلى الاعتقاد في أن هذه القواعد التي يفرضها الإيمان هي وحدها التي تكسب الحياة معنى . وكنت فيما سبق أنظر إليها كما أنظر إلى لغو من القول لا ضرورة له البتة . أما الآن فإن كنت لا أفهمها فإني أعرف أن لها معنى . فقلت لنفسى لا بد لي أن أتعلم فهمها .

واقنعت نفسي بأن معرفة الإيمان — كالإنسانية كلها وما لديها من عقل — تتدقق من ينبوع عجيب . ذلك ينبوع هو الله ، أصل الجسم الإنساني والعقل الإنساني . وكما أن جسمي هبط إلى من الله فكذلك هبط إلى عقلي وإدراكي للحياة . ومن ثم فإن المراحل المختلفة لتطور ذلك الإدراك للحياة لا يمكن أن تكون باطلة . كل ما يعتقد فيه الناس مخلصين لا بد أن يكون صادقا . نعم إنه يمكن التعبير عنه بصيغ مختلفة ، ولكنه لا يمكن أن يكون أ كذوبة . وإذن فإن بدا لي أ كذوبة ، فلا يعنى ذلك إلا أني لم أفهمه . وقلت لنفسى فوق ذلك إن خلاصة كل عقيدة تنحصر في إكسابها الحياة معنى لا يهدمه الموت . ومن الطبيعي أن الإيمان لكي يقدر على الإجابة عن مشكلة الملك الذي يموت من الترف ، والعبد المسن الذي يعذبه إرهاق العمل ، والطفل الشاذ ، والشيخ الحكيم ، والمرأة العجوز

التي بها مس ، والزوجة الشابة السعيدة ، والشاب الذي تؤرق جنبيه العواطف ، والناس أجمعين في ظروف الحياة المتنوعة وضروب التربية المختلفة — إن كان هناك جواب واحد عن السؤال الحيوي الأبدي الوحيد : « لماذا أعيش ، وماذا عساه ينجم عن حياتي ؟ » — من الطبيعي أن الإيمان لكي يقدر على الإجابة عن هذه المسائل لا بد أن تكون إجابته — وإن أتت في روحها — متنوعة في صيغتها تنوعاً لا نهاية له . وكلما آلت الأجوبة إلى التوحيد وكانت أدنى إلى الصدق وإلى العمق ، كان من الطبيعي أن تبدو عجيبة شائبة في محاولتها التعبير لكي تتفق وتربية كل فرد ومركزه . بيد أن هذا التسلسل الفكري ، الذي كان يبرر في نظري غرابة الكثير من جانب الطقوس في الدين ، لم يكف أن يسمح لي في ذلك الموضوع الأوحـد الخطير في الحياة — وأقصد الدين — أن أؤدى أعمالاً تبدو لي مدعاة للسؤال . ووددت بكل نفسي أن أكون في مركزيهي إلى الاختلاط بالناس ، وأن أقوم بطقوسهم الدينية ؛ ولكنني لم أستطع أن أفعل ذلك . وأحسست أني إن فعلت ذلك أ كذب على نفسي وأسخر مما كان لدى مقدسا . وعندئذ أسرع إلى إنقاذي ككتابنا الدينيون الروس المحدثون .

وبناء على التفسير الذي يقول به رجال الدين هؤلاء فإن مجموعة العقائد الأساسية لديننا ترمى كلها إلى أن الكنيسة لا تخطئ . وإذا سلمنا بذلك فلا مناص من التسليم بصدق كل ما تزعمه الكنيسة . فأصبحت الكنيسة باعتبارها مجموعة من المؤمنين الصادقين يؤلف بين قلوبهم الحب — ومن ثم فهي تملك المعرفة الصحيحة — أساس عقيدتي . وقلت لنفسي إن الحق السماوي لا يتيسر للفرد منفصلاً عن المجموع . إنما يتكشف فقط لمجموع الأفراد بأسره الذين يوحد الحب بين قلوبهم . فلـكي يظفر المرء بالحقيقة ينبغي له ألا ينفصل ، وينبغي له أن يحب وأن يتحمل أشياء قد لا يوافق عليها .

الحقيقة تكشف عن نفسها للحب . وإذا لم تخضع لطقوس الكنيسة فإنك تعتدى على الحب . وباعتدائك عليه تحرم نفسك من إمكان العلم بالحقيقة . ولم أر في ذلك الحين السفسطة التي يتضمنها هذا المنطق . لم أر أن الاتحاد في الحب قد يعطينا من الحب أعظمه ، ولكنه من غير شك لا يعطينا الحق السماوي مصاغاً في الكلمات المحددة التي يضعها فيها مذهب

نيسين Nicene Creed . وكذلك لم أدرك أن الحب لا يمكن أن يجعل من عبارة معينة تضاع فيها الحقيقة شرطاً إجبارياً للاتحاد . لم أدرك في ذلك الحين هذه المأخذ في ذلك المنطق . وبفضل هذا الجهل استطعت أن أقبل وأن أودى كل طقوس الكنيسة الأرثوذكسية دون أن أفهم أكثرها . ثم حاولت بكل ما في نفسي من قوة أن أتجنب كل جدل أو تناقض ، واجتهدت أن أفسر مزاعم الكنيسة التي صادفتني تفسيراً معقولاً بقدر الإمكان .

وكنت حيناً أودى طقوس الكنيسة أخضع عقلي وأسلم للتقاليد التي تملكها الإنسانية جمعاء . واتحدت مع أسلافي : أبى وأمى وجدودى الذين أحببت . إنهم وكل من سبقنى كانوا يعتقدون وكانوا يعيشون ، وهم الذين نجلونى . وكذلك اتحدت مع ملايين العامة الذين كنت أبجلهم . وفوق ذلك فإن تلك الأعمال لم تتضمن شراً من الشرور (فلقد كنت أعتبر « الشر » فى استرسال المرء فى شهواته) . وكنت عند ما أستيقظ مبكراً لصلاة الكنيسة أعلم أننى أفعل خيراً ، على الأقل لأنى أضحى براحتى البدنية كى أذل كبريائى العقلى ، فى سبيل الاتحاد مع أسلافي ومعاصرى ، وفى سبيل العثور على معنى الحياة . وكان الأمر كذلك عند ما كنت أتأهب للتناول ، وعند ما كنت أقرأ دعواتى كل يوم متضرعاً ، وكذلك عند ما كنت أحافظ على أيام الصيام . ومهما تكن هذه التضحيات تافهة فقد كنت أقوم بها فى سبيل الخير . فلقد كنت أصوم وأتأهب للتناول وأودى صلواتى فى أوقاتها فى البيت وفى الكنيسة . وكنت أثناء الصلاة فى الكنيسة أصغى لكل كلمة وأكسب هذه الكلمات معنى كلما استطعت ذلك . وفى صلاة الجماعة كانت أكثر الكلمات أهمية عندى هذه العبارة « ليعب أحدهنا الآخر ولتتحد قلوبنا » أما هذه الكلمات : « إننا نؤمن بالاتحاد ، وكذلك بالأب والابن والروح القدس » ، فقد كنت أمرّ بها مراراً سريعاً لأنى لم أستطع أن أفهمها .

كان إذن لزاماً علىّ أن أعتقد فى الدين لىكى أعيش ، فأخفيت عن نفسى — دون أن أشعر — ما تحتويه أصول الدين من متناقضات ومسائل غامضة . ولكن قراءة المعانى هذه فى الطقوس كانت لها حدودها . فلئن ازدادت لى وضوحاً الكلمات الرئيسية فى الدعاء للإمبراطور ، ولئن كنت قد عثرت على تفسير لهذه الكلمات : « إننا إن ذكرنا سيدتنا

المقدسة أم الإله وكل القديسين ، إن ذكرنا أنفسنا وذكر أحدنا الآخر ، فإننا بذلك نقدم حياتنا كلها للمسيح ربنا » ، ولئن فسرت لنفسى تكرار الدعاء لقيصر وآل بيته من حين إلى آخر بأنهم أشد تعرضاً للإغراء من أى قوم آخرين ، ولذا فهم أشد حاجة إلى أن يُدعى لهم — إني إن فهمت ذلك فإن الدعوات الخاصة بإخضاع أعدائنا وإخضاع الشر تحت أقدامنا (حتى لو حاولنا أن نقول إن الرذيلة هى العدو الذى ندعو ضده) . هذه الدعوات وأشباهاها مثل « نشيد شاروويم » وكل الطقوس المتعلقة بالفداء ، أو « المحاربين المختارين » الخ — وهى تبلغ ثلثي الصلوات كلها — إما بقيت غير مفهومة تماماً ، أو إن حاولت تفسيرها على أية صورة جعلتني أعتقد أنى أكذب ، وبذلك تهدم علاقتي بالله هدماً كاملاً وتحرمنى كلية من إمكان الاعتقاد .

وأحسست مثل هذا الإحساس فيما يتعلق بالاحتفال بالأعياد الرئيسية . وأتذكر الآن يوم الأحد ، وهو اليوم السابع من كل أسبوع الذى نكرس أنفسنا فيه لله ، وقد أستطيع أن أدرك هذا المعنى . غير أن العيد الأكبر هو الاحتفال بيوم القيامة ، ولم أستطع أن أصور لنفسى أو أن أفهم حقيقة ذلك اليوم . وهذا الاسم نفسه « القيامة » تسمى به كذلك العطلة الأسبوعية^(١) . وفى هذه الأعياد كنّا نقدم القرايين المقدسة ، وذلك مالم أفهمه البتة . أما بقية أيام الأعياد وعدتها اثنا عشر يوماً فكلها — ما خلا عيد الميلاد — تخليد لذكرى بعض المعجزات — وهى الأشياء التى تجنبت التفكير فيها لى لا أكفر : ومن هذه الأعياد عيد الصعود وعيد العنصرة وعيد الغطاس وعيد شفاعة العذراء الخ . وعند الاحتفال بهذه العطلات كنت إما أن أخترع تفسيراً أهدي به نفسى أو أغمض عيني كي لا أشهد ما يفرينى ، وذلك لأنى كنت أحس أن الأشياء التى ليست لها عندى أهمية تكتسب بهذه الاحتفالات أهمية كبرى .

وقد حدث لى أكثر ذلك عند ما كنت أشترك فى الطقوس المألوفة التى تعد ذات أهمية كبرى : مثل التعميد والتناول . هنا كنت ألتقى بأعمال لا أقول إنها غير مفهومة بل أقول إنها جد مفهومة ، فبى أعمال تبدو لى أنها تؤدى إلى الإغراء ، فوقعتم فى حيص بيص — إما أن أخاثل أو أن أنبذها .

(١) يسمى الروس يوم الأحد يوم القيامة .

ولن أنسى ما حييت ذلك الشعور الأليم الذى أحسست به فى اليوم الذى تلقيت فيه القربان المقدس للمرة الأولى بعد عدة سنوات . فلقد كانت الصلاة ، والاعتراف ، والدعوات جد مفهومة عندى ، وبعثت فى إحساسا سارا بأن معنى الحياة قد تكشف لى . وقد فسرت التناول بأنه عمل نؤديه لذكرى المسيح ، ويدل على التطهر من الإثم وعلى قبول تعاليم المسيح كلها . ولئن كان هذا التفسير متصنعا فإنى لم ألاحظ هذا التصنع : ولكم كنت سعيدا لأنى أخضع نفسى وأذلها أمام القسيس — وهو رجل من رجال الدين ساذج ريفى متواضع — وأخرج كل ما بنفسى من قذارة وأعترف بما اقترفت من ذنوب . وكنت منشراح الصدر لأنى أشترك بفكرى مع الآباء المتواضعين الذين كتبوا الدعوات الدينية . وكنت أبتهج لاتحادى مع كل من آمن ومن يؤمن اليوم ، حتى إنى لم ألاحظ التصنع فى تفسيرى . ولكنى عند ما اقتربت من أبواب المذبح ، ودفعنى القسيس إلى أن أقول بأنى أعتقد بأن الذى أوشك أن أبتله هو لحم ودم فعلا ، أحسست بالألم يحز فى قلبى . فلم يكن ما طلب إلى باطلا فحسب ، وإنما كان مطلباً قاسياً تقدم به شخص من الأشخاص من الجلى أنه لم يعرف قط ما الإيمان .

وأسمح لنفسى الآن أن أقول إنه كان مطلباً قاسياً ، ولكنى لم أحسبه كذلك فى ذلك الحين . إنما كان شديد الألم على نفسى إلى درجة لا يحيط بها الوصف . فلم أعد فى المركز الذى كنت فيه أيام الشباب ، حينما كنت أحسب أن كل ما فى الحياة واضح . فإننى فى شبابى قد آمنت حقاً لأنى — بعيداً عن الإيمان — لم أجد البتة شيئاً غير الدمار . ولذا كان من المستحيل أن أنبذ ذلك الإيمان ، فسلمت . وألقيت فى نفسى شعوراً يعينى على تحمله . ذلك هو الشعور بالتواضع وإنكار الذات . فأذلت نفسى وتناولت ذلك اللحم والدم دون إحساس بالغييب فى ذات الله ، بل برغبة قوية فى الإيمان . غير أن الواقعة قد وقعت ، ولما كنت أعلم ما ينتظرنى لم أستطع أن أذهب مرة أخرى .

ولم أنقطع عن أداء طقوس الكنيسة ، وما برحت أعتقد أن التعاليم التى اتبعتها تنطوى على الحق ، وبقيت كذلك حتى وقعت لى واقعة أفهمها الآن ، ولكنها بدت لى حينذاك أمراً عجيباً .

كنت أصغى إلى حديث فلاح أمى حاج عن الله والإيمان والحياة والخلاص حينما
تكشف لى العلم بالإيمان . واقتربت من الناس ، وأصغيت إلى آرائهم فى الحياة وفى الإيمان ،
وزدت إدراكا للحق . وحدث لى مثل ذلك عند ما قرأت مجموعة « حياة القديسين » ،
وقد أصبحت أحب الكتب إلى نفسى . ولما غضضت الطرف عن المعجزات واعتبرتها
خرافات توضح بعض الآراء كشفت لى قراءة هذه الكتب عن معنى الحياة . قرأت حياة
مكارىوس العظيم ، وقصة بوذا ، وكلمات القديس حنا خريستيم ، وقصص المسافر والبئر ،
والراهب الذى وجد بعض الذهب ، وبطرس صاحب الحان . وقرأت قصص الشهداء ،
وكلها تعلن أن الموت لا ينهى الحياة . وقرأت قصص الرجال الأغنياء الجبناء الذين لا يعلمون
شيئا عن تعاليم الكنيسة ولكنهم برغم ذلك قد ظفروا بالخلاص .

ولكنى عند ما قابلت المعتقدين فى الدين من العلماء أو تناولت كتبهم ثارت فى نفسى
الشك والسخط والجدل والحنق ، وأحسست أنى كلما تعمقت معنى كلام هؤلاء الناس ،
ازددت بعدا عن الحقيقة وقاربت شفاهوة سحيقة .

ولكم غبطت الفلاحين على أميتهم ونقص معارفهم ! فإن تلك المزاعم التى تشتملها
المذاهب المختلفة التى كانت فى رأى سخافات واضحة ، كانت فى رأيهم حقائق لا شك فيها .
وكان بوسعهم أن يقبلوها وأن يعتقدوا فى صدق ما اعتقدت فيه . غير أنى — أنا ذلك التعس
الشقى — كنت أرى بجلاء أن الحق يختلط بالباطل وتربط بينهما خيوط دقيقة ، ولذا فلم
أستطع أن أقبله فى تلك الصورة .

وهكذا عشت نحو ثلاث سنوات . وفى أول الأمر عند ما كان يربطنى بالحق رباط
واحد باعتبارى طالبا للتنصر ، وعند ما كنت أتحسس فقط ما كان يبدو لى شديد الوضوح ،
كانت هذه الأمور التى تصادفنى لا تصدمنى صدمة قوية . فإذا ما استعصى على فهم أمر من
الأمور قلت لنفسى « هذا خطأى ، وإنى لآثم » . ولكنى كلما تشعبت بالحقائق التى كنت
أتعلمها ، صارت أساسا مكينا لحياتى ، واشتد عسف هذه المصادفات وإيلامها ، واشتد وضوح
الخط الفاصل بين ما لا أفهم لأننى لا أستطيع فهمه ، وما لا يفهم إلا أن يكذب المرء على نفسه .

وبرغم شكوكي وآلامي ما برحت متمسكا بأهداب الكنيسة الأرثوذكسية . ولكن بعض مشا كل الحياة نشأت أمامي ولا بد من البت فيها . والبت في هذه المسائل عن طريق الكنيسة — وهي تناقض أسس العقيدة التي عشت عليها — اضطرني أخيراً إلى أن أنبذ التناول على المذهب الأرثوذكسي وأعدّه أمراً مستحيلاً . وهذه المسائل هي : أولاً علاقة الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية بالكنائس الأخرى — بالكاثوليك وبمن يسمون أنفسهم بالطائفيين . وفي ذلك الحين اتصلت بالمؤمنين بالعقائد المختلفة وذلك نتيجة لاهتمامي بالدين . فاتصلت بالكاثوليك والبروتستنت والمؤمنين الراسخين وبأولئك الذين لا يعتقدون في الطقوس والتقاليد ، وبغيرهم . وقابلت بينهم رجالاً كثيرين ذوي أخلاق رفيعة كانوا متدينين حقاً . وأردت أن أأخيمهم ، فماذا حدث ؟ إن تلك التعاليم التي تبشر باتحاد الجميع في عقيدة واحدة وحب واحد — تلك التعاليم نفسها في شخص خير ممثليها خبرتني أن أولئك الناس كانوا يعيشون في أ كذوبة ، وأن الذي أعطاهم قوة الحياة هو إغراء الشيطان ، وأننا نحن وحدنا نملك ما يحتمل أن يكون حقاً . ورأيت أن كل من لا يعترف بإيمان يتفق وإيمانهم يعتبر زنديقا عند الأرثوذكس . كما أن الكاثوليك وغيرهم يعتبرون الأرثوذكس زنادقة . ورأيت أن الأرثوذكس ينظرون بعين العداوة إلى كل من لا يعبر عن عقيدتهم بنفس الشارات الخارجية والكلمات التي يستعملونها هم أنفسهم (وإن كانوا يحاولون إخفاء ذلك) . وهذا أمر طبيعي : أولاً لأن إقرارك بخطئك وصوابي أقسى ما يعترف به إنسان لآخر ، وثانياً لأن الرجل الذي يحب أبناءه وإخوانه لا يسعه إلا أن يكون معادياً لأولئك الذين يحبون أن يردوا أبناءه وإخوانه إلى عقيدة خاطئة . وهذه العداوة تزداد بالنسبة إلى زيادة معارف الإنسان بعلوم الدين . واتضح لي — وأنا أعتقد أن الحق ينحصر في الاتحاد عن طريق الحب — أن علوم الدين كانت تهدم بنفسها ما كان ينبغي لها أن تبنيه .

وهذا الإغراء واضح جداً لنا نحن المعلمين الذين عشنا في بلاد يُعترف فيها بديانات مختلفة ، ورأينا الاحتقار وتقرير الذات والتناقض الشديد الذي يتخذه الكاثوليك نحو الإغريق الأرثوذكس ونحو البروتستانت ، والذي يتخذه الأرثوذكس نحو الكاثوليك والبروتستانت ، والبروتستانت نحو الاثنين ، والموقف المشابه الذي يقفه المؤمنون الراسخون والباشكوفيت (الروس الإنجلييون) والشيكس وكل الديانات . اتضح لنا ذلك جداً ، حتى إن شدة الوضوح حيرتنا

أول الأمر . يقول المرء لنفسه : يستحيل أن يكون الأمر بهذه البساطة ولا يرى الناس أنه إذا تناقض رأيان فلا يمكن أن ينطوى أحدهما على الحق الوحيد الذي يجب أن يتصف به الإيمان . هنا شيء آخر ، ولا بد من التفسير . ظننت ذلك ، وبجئت عن ذلك التفسير ، وقرأت كل ما استطعت في هذا الموضوع ، واستشرت كل من استطعت أن أستشير . ولم يقدم لى أحد أى تفسير سوى ذلك الذى يجعل السومسكى هوسار يعتبرون أنفسهم خير كتائب العالم ويجعل الأهلان الأصفر يعتبرون أنفسهم خير الكتائب . إن كل رجال الدين من مختلف النحل لم يخبرونى شيئا — عن طريق خير ممثلهم — سوى أنهم يعتقدون أن الحق لديهم وحدهم ، وأن الآخرين على خطأ ، وأن كل ما يستطيعون عمله أن يدعوا لهم . وقصدت رجال الكهنوت والقسس على مختلف رتبهم والرهبان وسألتهم ، ولكن أحدا منهم لم يحاول أن يشرح لى الأمر سوى رجل واحد فسر كل شيء ، وفسره بصورة لم تدعنى إلى أن أسأل شخصا آخر . بعد ذلك أى سؤال فى هذا الشأن . قلت إن كل رجل من غير المعتقدين يرتد إلى العقيدة (وشباب جيلنا كله فى مركز يدفعهم إلى ذلك) يصطدم أولاً بهذا السؤال : لماذا لا توجد الحقيقة فى مذهب لوثر أوفى الكاثوليكية وإنما توجد فى الأرثوذكسية ؟ ولما كان قد تلقى العلم فى المدرسة العليا فلم يسعه إلا أن يعرف — ما لا يعرف الفلاحون — إن البروتستانت والكاثوليك على السواء يؤكدون أن عقيدتهم هى وحدها العقيدة الصادقة . إن شهادة التاريخ لا تكفى ، لأن كل دين يحرّفها وفق مصلحته . قلت لنفسى : هل لا يمكن أن أفهم التعاليم بطريقة أسمى حتى تحتفى الفروق من ارتفاعى كما تحتفى من نظر الرجل الذى يعتقد اعتقادا صادقا ؟ هلا نستطيع أن نتابع السير فى طريق كالطريق الذى نسلكه مع المعتقدين الراسخين ؟ إنهم يؤكدون أن لديهم صليبا مختلفا فى صورته وأن أناشيد هلوليا والموكب الذى يسير حول المذبح تختلف عن نظائرها . ونحن نجيب على ذلك بقولنا : إنكم تعتقدون مذهب نيسين ، والطقوس المقدسة السبعة ، وكذلك تعتقد فيها نحن . فلنتمسك بهذا ، ولنفعلا ما شئتم فى غير ذلك من الأمور . واتحدنا معهم بوضع المهم من قواعد الإيمان فوق غير المهم . والآن ألا نستطيع مع الكاثوليك أن نقول : إنكم تعتقدون فى كذا وكذا ، وهى الأمور الأساسية . إما عن عبارة فليوك Filioque وإما عن البابا فافعلوا ما شئتم . وهل لا نستطيع أن نقول مثل ذلك للبروتستانت ، ونتردد معهم فى أهم الأمور ؟

ووافقتى محدثى على رأيى ، ولكنه أخبرنى أن مثل هذا التسامح يجب اللوم على أصحاب السلطات الدينية لأنهم يتخلون عن عقيدة أجدادنا ، وهذا يسبب الانقسام ، وواجب أصحاب السلطة الدينية أن يحافظوا على نزاهة العقيدة الأرثوذكسية الروسية اليونانية الموروثة عن أسلافنا .

وفهمت كل شىء . أنا أبحث عن الإيمان وعن قوة الحياة ، وهم يبحثون عن خير الطرق لأن يؤدوا فى أعين الناس واجبات إنسانية معينة . وإذا أدوا هذه الأمور الإنسانية فإنما يؤدونها بطريقة إنسانية . ومهما تحدثوا عن إشفاقهم على إخوانهم المخطئين ، وعن التوجه بالدعاء لهم عند صاحب العرش المسكين — فإن تنفيذ الأغراض الإنسانية يتطلب العنف ، وقد كان دائما وسيلة متبعة وما يزال وسوف يظل كذلك . إذا كانت هناك ديانتان ، وكل منهما تعتبر نفسها الديانة الصادقة والأخرى خاطئة ، إذن فلكى يجذب الناس الآخرين إلى الصدق لا بد لهم من التبشير بعقيدتهم . وإذا بُشِّر أبناء كنيستهم عديمي الخبرة بتعاليم خاطئة ، (وكنيستهم هى الكنيسة الصادقة) فإن تلك الكنيسة لا يسمعها إلا أن تحرق الكتب التى تضلل أبناءها وأن تُبعد الرجل الذى يفعل ذلك . ماذا يصنعون بطائفى — يتحرق فى رأى الأرثوذكس بنار عقيدة خاطئة — وهو فى أهم شئون الحياة — فى الإيمان — يضلل أبناء الكنيسة ؟ ماذا يصنعون به سوى أن يقطعوا رأسه أو أن يرحلوا به فى غيابة السجن ؟ فى عهد القيصر الكسوس ميخالوفتش كان الناس يُحرقون ، أى أن أقسى وسائل العقوبة فى ذلك الحين كانت تتبع . وفى الوقت الحاضر كذلك تتبع أقسى وسائل العقاب — وأقصد الحبس فى سجن منعزل^(١) .

ثم وجهت نظرى إلى ما يُعمل باسم الدين واشتد جزعى ، وكدت أقسم أن أتخلى عن الأرثوذكسية بتاتا .

والعلاقة الثانية للكنيسة بمسألة من مسائل الحياة هى فيما يتعلق بالحرب والإعدام . وكانت روسيا فى ذلك الحين فى حالة حرب . وبدأ الروس باسم المحبة المسيحية يقتلون إخوانهم . وكان من المستحيل ألا أفكر فى ذلك وألا أرى أن القتل شر تنفر منه المبادئ

(١) فى الوقت الذى كتب فيه تولستوى هذه الاعترافات كانت عقوبة الإعدام ملغاة فى روسيا .

الأولى لأى إيمان . وبرغم ذلك كانت الصلوات تُقام فى الكنائس لنجاح جيوشنا . وأقرّ رجال الدين عندنا أن القتل عمل ينبج عن الإيمان . وإلى جانب القتل أثناء الحرب رأيت خلال الاضطرابات التى أعقبت الحرب أن علماء الدين ورجاله وكبار الرهبان وصغارهم يوافقون على قتل الشباب العاجز الخطيء . ودوّنت كل ما يعمله الرجال الذين يزعمون اعتناق المسيحية ، وكان ذعري شديدا .

— ١٦ —

ولم أعد أشك ، واقنعت اقتناعا تاما أن ليس كل ما يتعلق بالدين الذى أعتنقه صادقا . وكنت فيما سبق أقول إن كله باطل ، ولكنى لا أستطيع أن أقول ذلك الآن . إن مجموعة الناس لها علم خاص بالحقيقة ، وإلاّ ما استطاعوا العيش . وهذا العلم — فوق ذلك — ميسور لى ، لأنى أحسست به وعشت عليه . ولكنى لم أعد أشك فى أن به كذلك شيئا من الباطل . وكل ما كان فيما مضى ينفرنى يتضح أمام عيني الآن بجلاء . ومع أنى رأيت أن الأكاذيب التى تتخلل العقيدة الصادقة والتى أنفر منها هى بين الفلاحين أقل منها بين ممثلى الكنيسة ، فقد رأيت أن الباطل يمتزج بالحق ، فى عقيدة الناس كذلك . ولكن من أين جاء الحق ومن أين جاء الباطل ؟ إن ما يسمونه التقاليد المقدسة والكتاب المقدس يحتوى الحق والباطل على السواء . وكلا الحق والباطل قد تحرر عن طريق ما يسمونه الكنيسة .

وسواء رضيتُ أو لم أرض اضطررت إلى دراسة الكتاب والتقاليد والبحث فيها . وقد كنت حتى آنئذ أخشى البحث فيها .

ثم اتجهت إلى فحص علوم الدين نفسها التى نبذتها من قبل وازدريتها باعتبارها غير ضرورية . وكانت فيما سبق تبدو لى سلسلة من السخافات التى لا ضرورة لها ، حينما كانت تحوطنى من كل جانب مظاهر الحياة التى كانت تبدو لى واضحة مليئة بالمعانى . والآن كان يسرنى أن أنبذ ما لا يقبله العقل السليم ، ولكنى لست أجدر لى ملاذًا . على هذه التعاليم تقوم العقائد الدينية ، أو على الأقل بهذه التعاليم ترتبط ارتباطا وثيقا المعرفة الوحيدة بمعنى الحياة الذى وجدته . ومهما بدت نائية لعقلى القديم الثابت فهى الأمل الوحيد فى النجاة . ويجب

أن تُفحص بعناية وانتباه لكي تُفهم ، ولا يكفي أن أفهمها كما أفهم فروض العلم : إنني لا أبحث عن ذلك ، ولا أستطيع أن أبحث عنه ، بعد ما عرفت خصائص العلم بالإيمان ، ولن أبحث عن تفسير كل شيء . فإني أعلم أن تفسير كل شيء — كبدء كل شيء — يجب أن يتوارى في اللانهاى . ولكنى أريد أن أفهم بطريقة تؤدي بى إلى ما لا مناص من عدم تفسيره . أحب أن أقرّ بأن أى شيء يستعصى على التفسير إنما يستعصى لأن مطالب عقلى خاطئة (فهى صحيحة ، ولا أستطيع أن أفهم شيئاً بعيداً عنها) وإنما ذلك لأنى أعترف بحدود قوى الذهنية . أحب أن أفهم بطريقة تجعل كل شيء يستعصى على التفسير يبدو مستعصياً بالضرورة ، ولا يبدو لى شيئاً أنا مضطر إلى الاعتقاد فيه اضطراراً .

ولا شك عندى أن فى تعاليم الدين شيئاً من الصدق . ولكنى موقن كذلك أن بها شيئاً من الباطل . ولا بد لى أن أميز بين الحق والباطل ، ولا بد لى أن أخلص هذا من ذاك . وأنا مقبل على هذا العمل . وسأبين بعد ذلك ما وجدت بالتعاليم من باطل وما وجدت بها من حق وما وصلت إليه من نتائج . وأغلب الظن أنى سأقوم بطبعها يوماً ما إن كانت تستحق ذلك وإن كان يريد لها أى إنسان^(١) .

١٨٧٩

كتبت ماسبق منذ نحو ثلاث سنوات وسوف أقوم بطبعه .

والآن منذ بضعة أيام عندما كنت أراجعه ، وعندما استعدت سلسلة الفكر والمشاعر التى تملكتنى حينما كنت أعيش خلال ذلك كله رأيت أثناء النوم حلماً . هذا الحلم يعبر فى إيجاز عن كل ماخبرت وكل ما وصفت . ولذا فإنى أظن أن وصف هذا الحلم لمن فهمونى سيجدد لهم ويوضح ويوحد كل ما قدمت بإسهاب فى الصفحات السابقة . وهذا ما رأيت فى الحلم : —

رأيت أنى كنت مستلقياً فوق الفراش . ولم أشعر براحة أو تعب . وكنت مستلقياً على ظهرى . ولكنى بدأت أفكر كيف وعلام كنت مستلقياً — وهو سؤال لم يطرأ لى حتى آنئذ . ولما نظرت إلى سرى ألفتى مستلقياً فوق وسادات من الأوتار المضفورة

(١) وضع تولستوى بعد ذلك كتاباً سماه « عقيدتى » حلل فيه العقيدة المسيحية وفسّر لنا مذهبه .

متصلة بجوانب السرير . ترتكز قدمي على إحدى هذه الوسادات ، وساقى على أخرى . وأحسست أن قدمي وساق متعبّة . وكأنني كنت أعرف أن تلك الوسادات متحركة ، فبحركة من قدمي دفعت الوسادة القصوى التي كانت عند قدمي — وتصورت أنني بذلك أكون أكثر راحة . غير أنني دفعت الوسادة بعيداً جداً وأردت أن أمسها ثانية بدمي ، وقد ترتب على هذه الحركة أن انزلت الوسادة الأخرى من تحت ساق ، وبات ساقى معلقين في الهواء . ثم حركت جسمي كله كي أترن في سريري ، وأنا على يقين تام أنني أستطيع أن أفعل ذلك توا ، غير أن الحركة سببت انزلاق الوسادتين الآخرين من تحتي ، واختلطتا بغيرهما ، وسارت الأمور على غير مايرام . وانزلت الجزء الأسفل كله من جسمي وظل معلقاً ولو أن قدمي لم تمس الأرض . ولم يمكّنني بالفراش سوى الجزء الأعلى من ظهري ، ولم يكن هذا الوضع متعباً فحسب بل لقد أزعجني . وحينئذ فقط سألت نفسي عن أمر لم يطرأ لي من قبل . سألت نفسي : أين أنا ، وعلام أنا مستلق ؟ وبدأت أتلفت حوالى وانظر قبل كل شيء في الاتجاه الذي كان جسمي معلقاً فيه ، وفي الناحية التي أحسست أنني لا بد أن أسقط سريعاً فيها . نظرت إلى أسفل ولم أصدق عيني . لم أكن فقط على ارتفاع يضارع ارتفاع أعلى البروج أو الجبال ، ولكنني كنت على ارتفاع لم أكن أتصوره .

ولم أستطع حتى أن أتبين إن كنت أرى شيئاً إلى أسفل في تلك الهوة السحيقة التي كنت معلقاً فوقها ، وإلى أي اتجاه أنجذب . وانقبض قلبي وحل بي الرعب . إن النظر في ذلك الاتجاه كان مرعباً . إنني نظرت هناك أحسست أنني لا بد أن انزل في الحال من فوق الوسادة الأخيرة ، ويكون في ذلك هلاك . ولم أتجه ببصرى إلى هناك . ولكن عدم النظر كان أسوأ من النظر ، لأنني فكرت ماذا عساه يحدث لي عندما أسقط من فوق الوسادة الأخيرة . وأحسست أنني أفقد سندی الأخير بسبب الخوف ، وأن ظهري ينزل تدريجاً إلى أسفل . ولا بد بعد لحظة أن أسقط . ثم عنّ لي أن هذا لا يمكن أن يكون حقيقة . إنما هو حلم ، فلا تيقظ ! وحاولت أن أنهض ولكنني لم أستطع . فماذا عساي فاعل ؟ واسأل نفسي هذا السؤال واشخص ببصرى إلى أعلى . وفي أعلاى كان هناك كذلك فضاء لا يحد . ثم نظرت إلى السماء العريضة وحاولت أن أنسى اتساع الهوة السفلى . ونسيتهام فعلاً . إن الهوة السفلى تنفّرني وتبعث فيّ الرعب ، والفضاء العلوى يجذبني ويشد أزرى . وما زالت تحملى

فوق الهوة الوسادات الأخيرة التي لم تنزل من تحتى . وأعرف أنى مازلت معلقا ، ولسكنى
أنظر إلى أعلى فقط فتتفتح مخاوفى . وكما يحدث فى الأحلام ، نادانى صوت قائلا : « انقبه
إلى هذا . إنه هو ! » ثم أنعم النظر فى اللانهاية التى فوقى وأحس بالهدوء . وإنى لأذكر
كل ما حدث ، واذكر كيف حدث ، وكيف حركت ساقى ، وكيف تدليت ، وكيف
امتلاّت نفسى رعبا ، وكيف نجوت من الخوف بالنظر إلى أعلى . ثم أسأل نفسى : والآن
ألست معلقا كذى قبل ؟ ولا أتلفت حولى بقدر ما أحس بكل جسمى نقطة الارتكاز التى
تمسكنى . وأرى أنى لم أعد معلقا كأنى على وشك السقوط ، بل أراى ثابت الارتكاز .
واسأل نفسى كيف أنا معلق هكذا : واتحسس حولى ، واتلفت هنا وهناك ، وأرى أن ليس
تحتى ، تحت جذعى ، وسادة واحدة ، وإنى عندما أنظر إلى أعلى استلقى عليها فى وضع مأمون
الانزان ، وإنها وحدها كانت تسندنى من قبل . ثم تصورت — كما يحدث فى الأحلام —
الطريقة التى كانت تمسكنى : وهى وسيلة طبيعية جدا ، معقولة ، أكيدة . وإن كانت
وسيلة لامعنى لها فى عين الرجل المتيقظ . بل لقد أدهشنى حتى فى الحلم أنى لم أفهمها من قبل .
بدا لى كأن عند رأسمى عمودا ، وهذا العمود النحيل مأمون لا يُشك فيه وإن لم يكن هناك
ما يستند إليه . ومن هذا العمود يتدلى حبل ملتو بطريقة سهلة تدل على العبقرية . وإن استلقى
امروء بخصره فى هذا الحبل الملتوى وشخص ببعصره إلى أعلى فليس هناك خطر من سقوطه .
وقد اتضح لى هذا كله ، وسررت وهدأت نفسى . وبدا لى كأن أحداً يقول لى « تذكر
هذا دائما » .

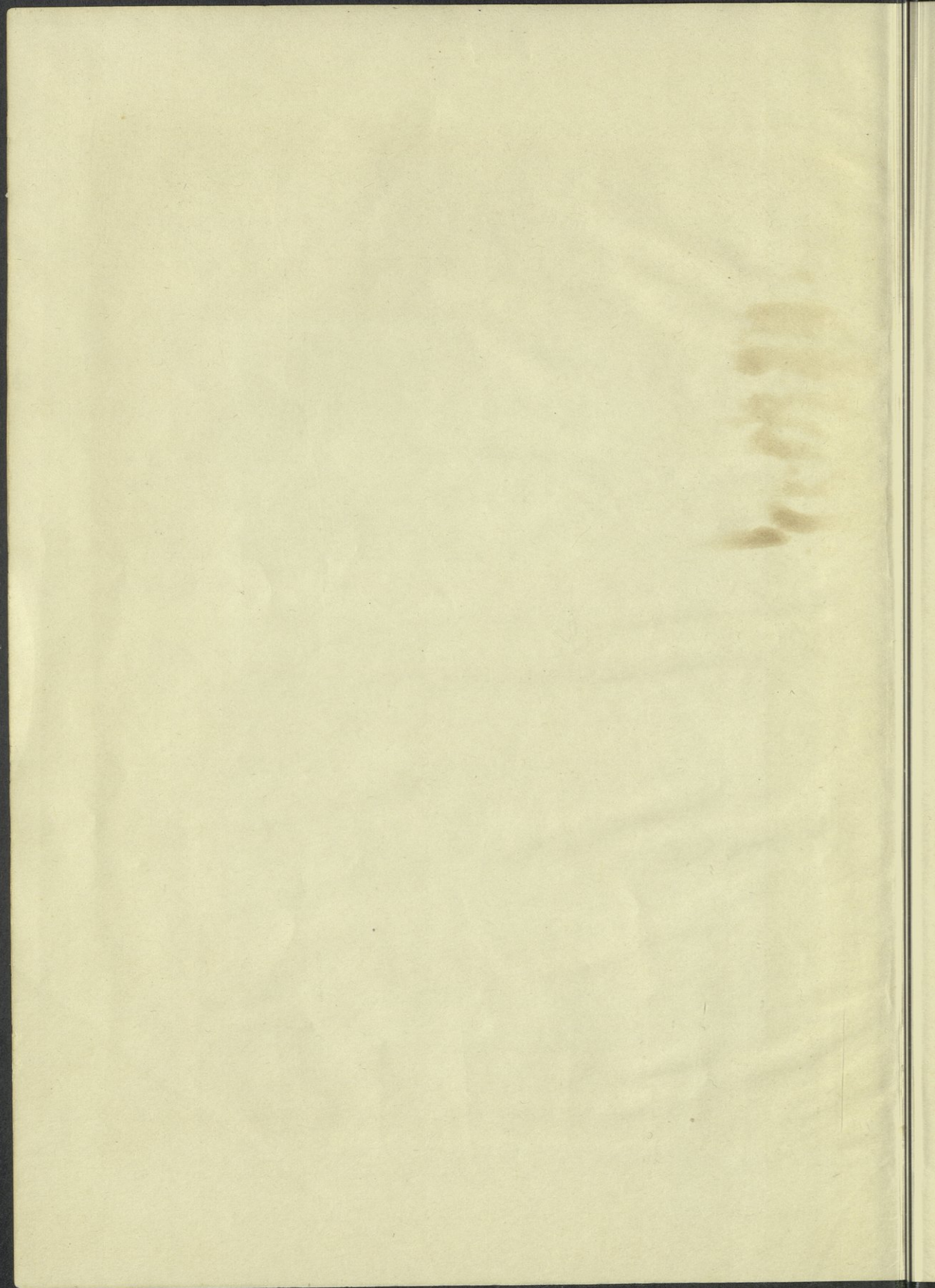
ثم تيقظت

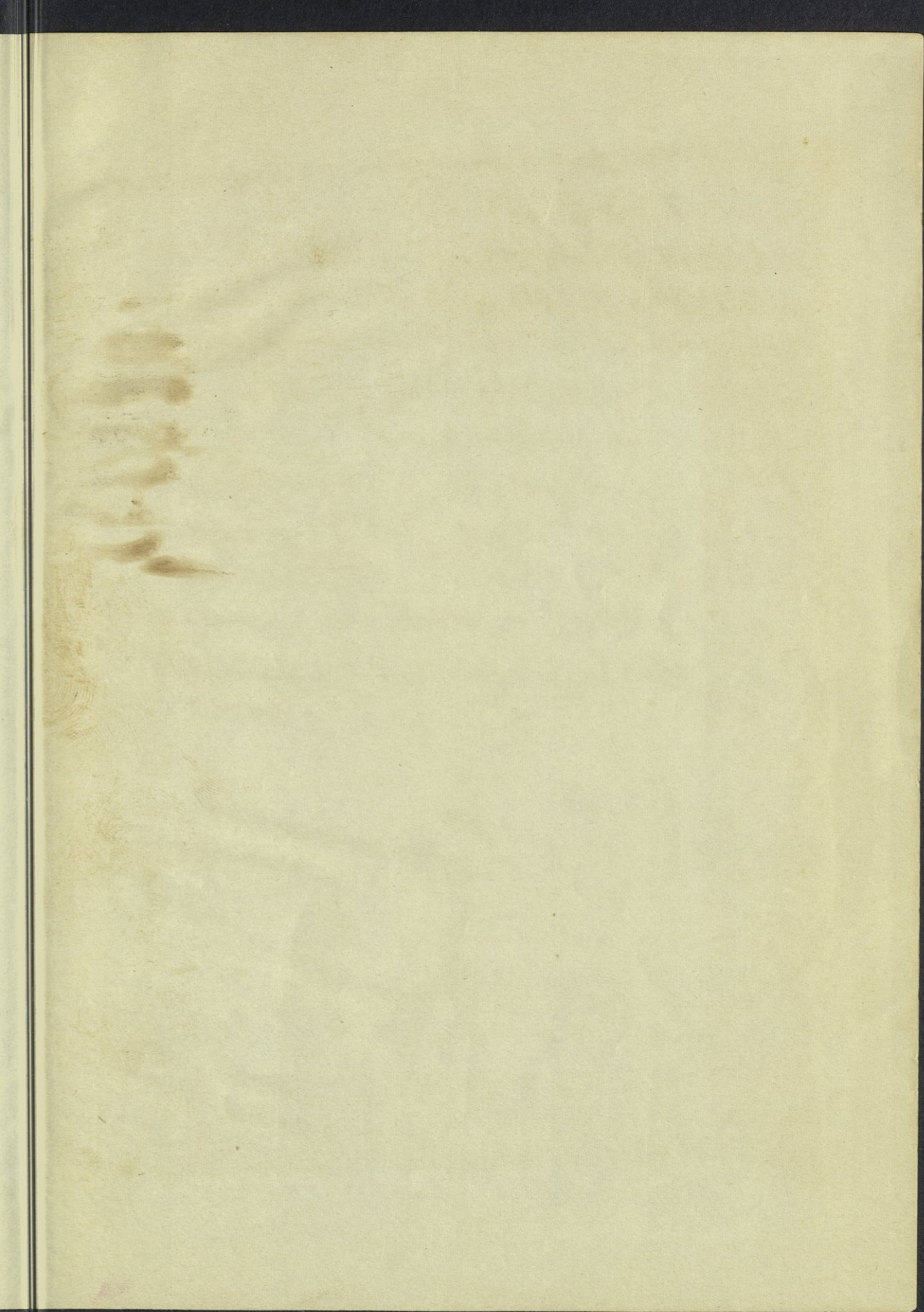
١٨٨٢

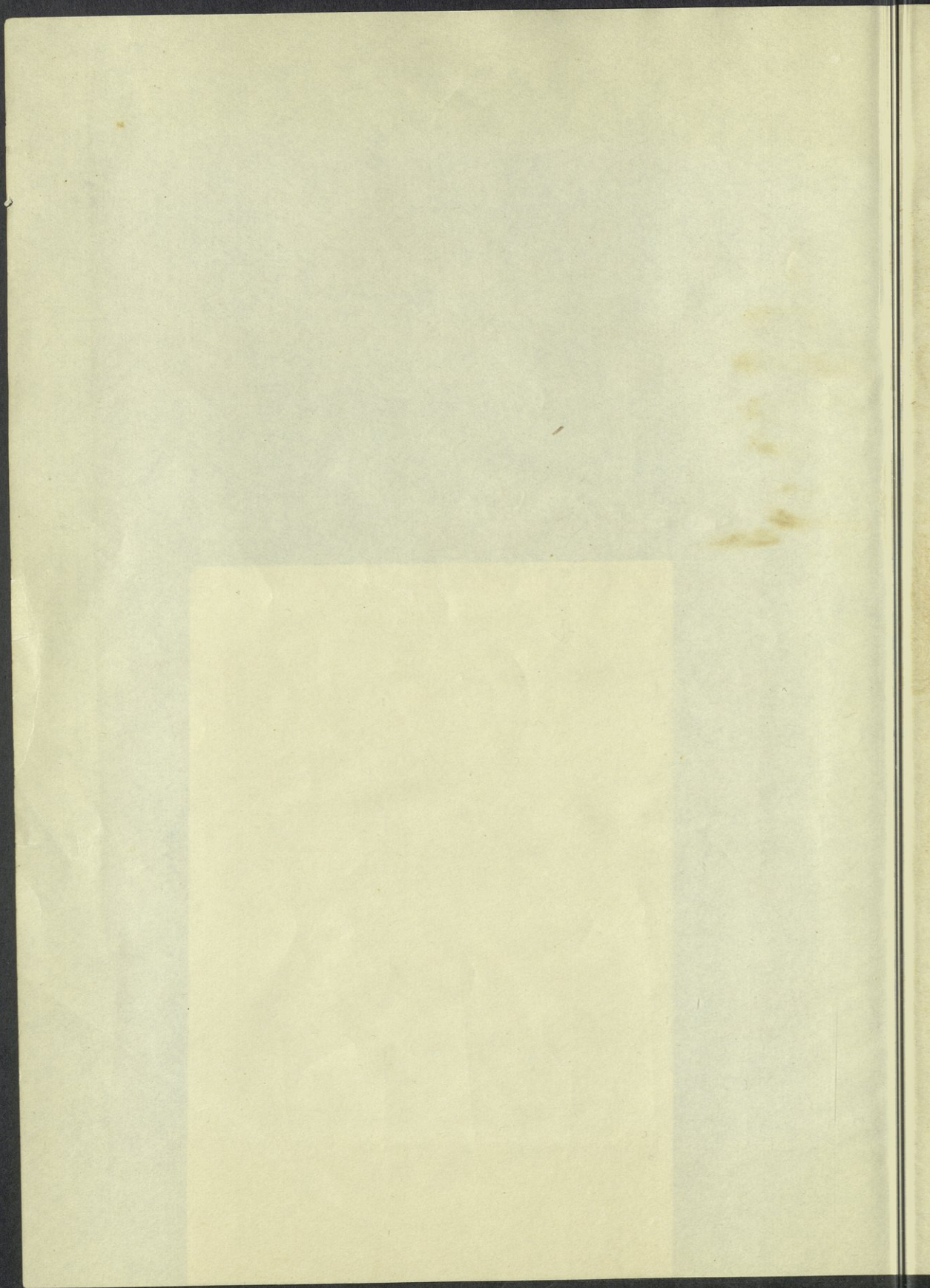
مكتبة العرب

مديرها : صلاح الدين البستاني

٢٨ ش كامل صمدى (القجالة) القاهرة







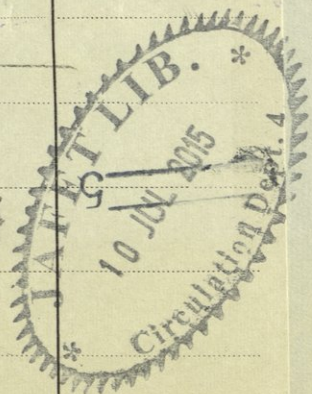
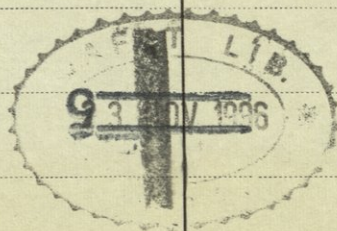
DATE DUE

SEP 18 '96

~~28 JUL 1985~~

~~24 DEC 1987~~

~~28 JUL 1988~~



AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



00311262

American University of Beirut



General Library

891.78
T654:A
C.1